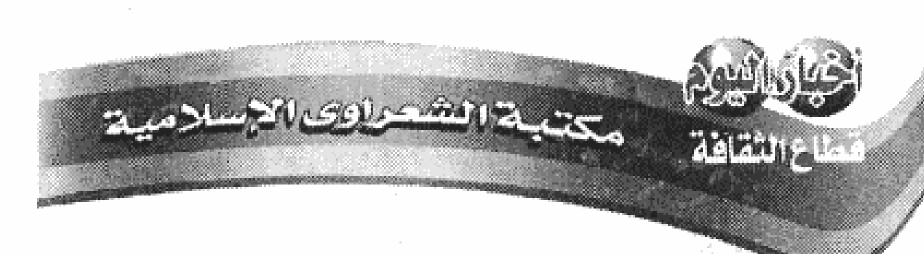


سورة الكهف

فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

رئيس مجلس الإدارة:

إبراهيم سعده

دار اخبار اليوم

قطاع الثقافة

جمهورية مصر العربية

٦ شارع الصحافة

القاهرة

تليفون/ فاكس

٥٧٩٠٩٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله والصلاة والسلام على
سيدنا رسول الله.
أسأل الله أن تكون هذه الكتب
التي ستصدر بعد مكتبتي خطوة على
طريق الهدى ونور وأمنية الراغبين للإيمان
والله نسأل الهداية والتوفيق

محمد متولي الشعراوي

التصميم الداخلي والغلاف : عبد الكريم محمود

الفصل الأول



الكهف الأول

سورة الكهف هى من سور القرآن الكريم . المليئة بكهوف معنوية . . الله سبحانه وتعالى . . جعل فى هذه السورة معاني لابد للعقل أن يتدبرها . . محتاجة الى نوع من التفكير . . نعرف معانيها ونعرف الحكم منها . . فإذا عرفناها كشفت لنا عن أسرار كثيرة مما يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا اليها . .

فى القرآن الكريم نلاحظ . . أن القصص التى يرويها . . والأمثلة التى يضربها . . أخفى الله سبحانه وتعالى عنا أسماء أبطالها الحقيقيين . . كما أخفى عنا زمان حدوثها ، وذلك لأن قصص القرآن الكريم . . مقصود منها العبرة وليس القصة نفسها . .

إننا إذا قرأنا مثلا . . قصة موسى عليه السلام مع فرعون . . فإننا نجد أن القرآن الكريم . . لم يبين لنا من هو فرعون الذى عاصر موسى عليه السلام . لماذا ؟ . . لأنه ليس المقصود بالقصة هو فرعون هذا . . وليس المقصود زمانه وعصره . . ولكن المقصود . . هو كل إنسان يريد أن يُعْبَد فى الأرض . . وكل جبار يعصى الله ويظلم . . كما فعل فرعون . . بتذبيح أبناء اليهود . . وترك نسائهم لتشيع الفاحشة بينهم . . ويصبحوا أذلاء .

أما الذين يبحثون . . عمن هو فرعون موسى ؟ . . وهل هو رمسيس الثانى أو غيره . . فإننا نقول لهم لا تضيعوا وقتكم فى

مثل هذا . . لأنكم أولا لن تصلوا الى نتيجة . . وثانيا لأن هذا ليس هو المقصود من القصة . . ففرعون الذى وجد فى زمن موسى عليه السلام . . يتكرر عبر الأزمان فى عصور مختلفة . . بل ان فى كل عصر فرعونا . . ونحن نأخذ هذه القصة . . لنعرف أن لكل ظالم نهاية . . ونهاية أليمة . . وعذابا ينتظره فى الآخرة .

وفى قصة ذى القرنين . . وهو رجل مصلح فزاده الله صلاحا . . نجد من يجادل ويقول إن ذى القرنين حكم الصين . . ويقولون إنه كان فى الحبشة . . أو كان فى اليمن . ونقول إن هذا كله لا يهمنا . . إنما الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن نعلمه ، هو العبرة من هذه القصة عندما يتولى رجل صالح زمام الأمور . . فيزيد ملكه صلاحا . . ويمنع الظلم . . وينصر الضعيف .



استثناء واحد

واذا كانت هذه هى القاعدة .. فهناك استثناء واحد يتمثل فى قصة عيسى بن مريم عليه السلام .. لقد عرف الله سبحانه وتعالى لنا فى القرآن الكريم .. عيسى وعرّف مريم .. فالأنبياء كلهم ذكروا فى القرآن الكريم بأسمائهم الأولى : ابراهيم وصالح ويونس وموسى وغيرهم .. إلا عيسى .. انه لم يذكر فى القرآن الكريم إلا بقول الحق سبحانه وتعالى عيسى بن مريم .. وقوله جل جلاله مريم ابنة عمران .

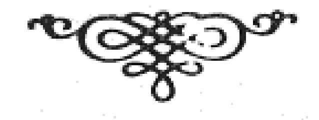
لقد عرفهما الله سبحانه وتعالى ، وميزهما عن جميع خلقه .. لماذا ؟ .. لأن المعجزة فيهما لا تتكرر .. فلن تضع أنثى مولودا بدون ذكر .. إلا مريم إبنة عمران .. فمن دون نساء البشر جميعا إصطفاها الله سبحانه وتعالى لهذه المعجزة ..

إن عيسى وأمه مريم عليهما السلام ، هما مثلان لا يتكرران فى الأزمان المختلفة .. إنهما معجزة لا تحدث مرتين فلا يمكن أن تدعى امرأة أنها حملت بدون رجل .. وهى إن ادعت ذلك تكون كاذبة ، كذلك لا يمكن لطفل أن يدعى أنه ولد بغير أب .. وهو لو ادعى ذلك كان كاذبا .. ولذلك ـ كما قلنا ـ عرّفهما الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم .. فقال : « عيسى بن مريم » .. : « ومريم ابنة عمران » .

وقصة يوسف عليه السلام .. هى القصة الوحيدة التى وردت فى القرآن الكريم .. كاملة فى سورة واحدة .. فهى تتكرر مع الزمن .

أما سورة الكهف .. التى سنتحدث عنها فى هذا الكتاب فهى - كما قلت - سورة مليئة بالكهوف .. ولكنها كهوف معنوية ، وسنتحدث إن شاء الله عنها جميعا .

إن الكهف الحقيقى فى هذه السورة .. هو ما ذكر فى أولها عن أهل الكهف .. وكما نعرف فإن الكهف هو فجوة فى الجبل تحجب من فيها عن الناس .. فمن أراد أن يختبىء من قوم يطاردونه .. أو لصوص يريدون سرقته وقتله .. فإن كان فى منطقة جبلية .. فإنه يلتجىء الى كهف فى الجبل .. يحميه عن أعين من يطارده فلا يرونه .





من هم أهل الكهف ؟

وقصة أهل الكهف . . هى قصة كل قوم يفرون من الطغاة الذين يحاولون أن يجبروهم على الكفر بالله . . فيفروا بدينهم ويختبئوا فى كهف . . إن الله سبحانه وتعالى يصفهم فى كتابه الكريم بقوله :

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

وبهذه الصفة علمنا أن أهل الكهف . . لم يكونوا من الشيوخ الضعفاء . . أو مجموعة من النساء . . إنما هم فتية . . أى فيهم شباب وفتوة . . وأنهم آمنوا بربهم . . أى أنهم فتية مؤمنون بالله . . وأن الله سبحانه وتعالى . . لما آمنوا به زادهم إيمانا وهدى من عنده . . فالله جل جلاله . . يزيد المؤمن إيمانا . . ويعينه على الطريق . . مادام إيمانه صحيحا وقويا . . مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾

(الآية ١٧ سورة محمد)

ان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه يعين المؤمن . . على طريق الايمان . . فيزيده من فضل الله .

هؤلاء الفتية خافوا على دينهم . . وخافوا على عقائدهم من أن يجبرهم حكامهم على عبادة غير الله . . ففروا بدينهم الى كهف فى الجبل . . يختبئون فيه من الطغاة الكفرة . . والكهف مكان ضيق . . لا يستطيع الانسان أن يمضى فيه إلا وقتا قصيرا . . واقرأ قول الحق جل جلاله :

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾

(الاية ١٦ سورة الكهف)

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نعلم . . أن هذا الكهف الضيق . . الذى ـ بفكرنا البشرى وتفكيرنا المادى ـ نظن أنه سيضيق عليهم مكانا بمساحته الصغيرة . . وزمانا بأنه لا أحداث فيه . . هذا الكهف ان ضاق عليهم مساحة ، فلن يضيق عليهم إنعاما . . فرحمة الله سبحانه وتعالى ستجعل هذا المكان الضيق يبدو رحبا واسعا . . فلا يحسون بضيق المكان . . والزمن يتوقف فيه . . فلا يحسون بضيق الزمان . . بل تأتى رحمة الله لتحيط بهم . .

إن هذا يلفتنا الى أن كل من يفر بدينه . . الى مكان غير الذى يقيم فيه . . إن هذا المكان مهما كان ضيقا . . فإن الله برحمته يجعله واسعا رحبا . . فإن كان هذا المكان فيه ضيق فى الرزق . . فتح الله للفارّ بدينه من أبواب الرزق . . ما يجعله

أغنى الأغنياء . . وإذا كان هذا المكان يضيق بالغرباء . . أى لا يرحب فيه بغريب . . وضع الله من رحمته فى قلوب سكان هذا المكان . . ما يجعلهم أشد الناس ترحيبا بالفارِّ بدينه . . وان كان هذا المكان ضيقا بمن فيه . . أى مزدحما . . أوجد الله للفارِّ بدينه مكانا متسعا يعيش فيه .

وهكذا فان الذى يفر بدينه من الكفر لا يخزيه الله أبدا . . بل تكون معه رحمة الله ، تزيل عنه ضيق الرزق وتعطيه سعته . . وتزيل عنه ضيق الغربة . . وتجعل أهل هذا المكان أحن عليه من أهله . . وتزيل عنه ضيق الاقامة . . وتعطية إقامة واسعة رحبة .

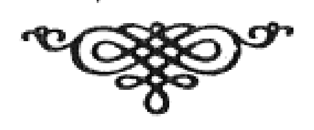
ان هذا الذى يحدث له ليس بفعله هو . . ولا بأسبابه هو . . وإنما من رحمة الله . . وهكذا نعرف أن الله سبحانه وتعالى . . لا يترك المؤمن الفارَّ بدينه لأسباب الدنيا . . بل يتولاه برحمته . . فيجعل كل شىء ضيقا بالغ السعة برحمته سبحانه وتعالى . .

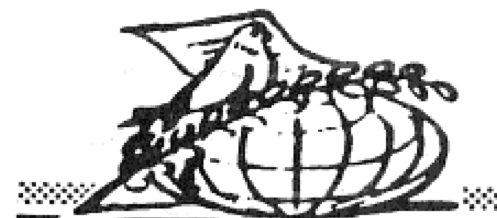
ومن رحمته بأهل الكهف انه لم يجعلهم يفكرون فى أنهم مضطهدون حتى لا يعيشوا فى قلق ورعب من أن يلحق بهم الطغاة الكفرة . . أو يكتشفوا مخبأهم . . كما أزال من حياتهم هَمَّ البحث عن الطعام والشراب ، لأن عملية البحث كانت ستعرضهم لظروف قاسية كل يوم . . هى أن يخرج أحدهم من الكهف ليأتى لهم بطعامهم وشرابهم . . وهو يتلفت خلفه خوفا من أن يراه أحد أعوان الطغاة . . فيرشدهم الى الكهف . . أو

أن يتتبعه أحد وهو عائد بالطعام والشراب الى الكهف . . فيعرف مقرهم . . ويبلغ أمرهم الى الطغاة الكفار . . فيحضروا اليهم ويقتلوهم . . أو يجبروهم على الكفر .

ولذلك ألقى الله عليهم . . : « أمنة نعاسا » . . أى ألقى عليهم النوم فى الكهف . . فلا يعثر عليهم أحد . . ولا يشعرون بالوقت . . ولا يحتاجون الى طعام أو شراب .

وهكذا خلصهم الله سبحانه وتعالى من كل ضيق دنيوى . . فلاهم أحسوا بضيق المكان . . ولا أحسوا بملل الزمان . . ولا أحسوا بقلق توقع الخطر . . ولا أحسوا بضيق حياتهم . . بل الله تبارك وتعالى رحمة منه . . أذهب هذا الضيق تماما . . وكانت هناك آيات بقدرة الله سبحانه وتعالى . . هى التى تولتهم بعنايتها .





وتوقف الزمن

أول مظاهر القدرة هو إن الله سبحانه وتعالى ألقى عليهم النعاس أو النوم . . وعادة فإن الانسان ينام يوما أو بعض يوم . . وأقصى ما يمكن أن يقوله الانسان . . أنه نام يوما أو بعض يوم . . لذلك عندما استيقظوا من نومهم . . كان السؤال الذى سأله بعضهم البعض هو . . كم كانت مدة نومهم ؟ فقالوا يوما أو بعض يوم . . كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى فى قوله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

ولابد أن نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى : « يوما أو بعض يوم » . . لأن هذا يدلنا على أن الحق تبارك وتعالى أوقف تأثير الزمن عليهم . . فكانوا فى هذه الفترة خارج الزمن . . لم يحسوا بوقت نومهم .

ان هذا أمر طبيعى . . فالنائم لا يحس بالزمن . . ولا يعرف كم ساعة نامها . . الا اذا كان قد عرف متى بدأ النوم ، ثم نظر الى الساعة عندما استيقظ ، أو أن يكون قد نام والدنيا نهار . .

وضوء الشمس ساطع ليستيقظ والدنيا ظلام . . أو العكس . . أى أنه لابد أن يكون عنده مقياس خارج نفسه . . يدله على الزمن . . والا فإنه لا يعرف كم ساعة نامها .

فهل كان عند أهل الكهف . . مقياس خارج أنفسهم ليعرفوا كم ناموا ؟ . . نعم كان عندهم مقياس خارج أنفسهم . . ولكن الله سبحانه وتعالى أبطل هذا المقياس فلم يؤثر عليهم . .

ما هو المقياس الذى كان خارج أنفسهم ؟ . . أن يروا تأثير الزمن على أجسادهم . . فلو أنهم كانوا تحت تأثير الزمن . . وناموا فترة طويلة ثم قاموا ونظر بعضهم الى بعض ، لوجدوا أن شعرهم الأسود قد ابيض . . وأن التجاعيد قد ملأت وجوههم وأيديهم . . وأن قوتهم قد ضاعت . . وتبدلت ضعفا . . وأن أقدامهم لا تستطيع أن تحملهم . . ولرأوا غير ذلك من آثار الزمن على الجسد البشرى .

ولكن لأن الله أبطل بالنسبة اليهم هذا المقياس الزمنى . . أصبحوا غير خاضعين لتأثيرات الزمن . . لهذا عندما قاموا ونظر بعضهم الى بعض ، وجدوا أن هيئتهم كما هى لم تتغير ، ورأوا أنفسهم فى الصورة الشابة التى ناموا عليها ، ولم يلحظوا أى تغيير . . فى وجوههم أو أجسادهم . . بل وجدوا صورتهم كما هى . . فاعتقدوا أنه لم يمض عليهم أكثر من ساعات وهم رقود فى الكهف .

وهذا نفس ما حدث للعبد الصالح . . الذى ذكره الله

سبحانه وتعالى لنا فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

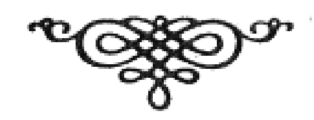
(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

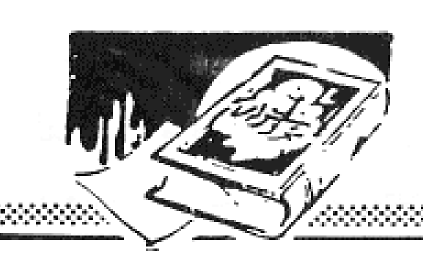
هذا العبد الصالح مر على قرية أنزل الله بها العذاب .. فأصبحت خربة .. فتساءل عن قدرة الله فى إحياء هذه القرية .. فأراد الله سبحانه وتعالى .. أن يريه لمحة من قدرته .. فأماته مائة عام ثم بعثه .. وعندما بُعث سأله الله تبارك وتعالى عن المدة التى قضاها بعيدا عن الحياة ؟ .. فقال يوما أو بعض يوم جريا على عادة البشر .. لأنه لم يشعر أن شيئا فى جسده قد تغير أو تبدل .. وهنا أخبره الله سبحانه وتعالى بالحقيقة فقال جل جلاله :

﴿ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

لقد أخبره الله تبارك وتعالى بالحقيقة . . وطلب منه أن ينظر الى طعامه وشرابه . . فإذا بطعامه وشرابه . . كما هو لم يتغير . . ثم طلب منه أن ينظر الى حماره . . فوجده قد تحول الى عظام نخرة . . وذلك محتاج الى وقت طويل . . فعلم أنه لا يمكن أن يكون قد مضى عليه يوم أو بعض يوم . . وهكذا أجرى الله الزمن على الحمار . . وأوقفه عن الطعام . . ولا يمكن أن يفعل الشيء وضده فى نفس الوقت إلا الله سبحانه وتعالى الذى بيده وحده مقاليد كل شيء .





كهوف القدرة

هؤلاء الفتية الذين يطلق عليهم أهل الكهف .. أنامهم الله ثلاث مائة عام وتسعة .. وهذه مسألة تحتاج الى أشياء كثيرة .. تظهر لنا فيها كهوف القدرة .. وأول هذه الكهوف .. أن الرقاد الطويل يفسد الجسد .. وأن التصاق الجسد بالأرض فترة طويلة يعرضه لأضرار بالغة .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الكهف)

وهكذا أعطانا الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم .. ما لم يصل اليه الطب إلا حديثا .. الأطباء يطلبون من أهل المريض .. غير القادر على الحركة .. أن يقلبوه يمينا ويسارا .. حتى لا يصاب جسده بقرحة الفراش .. التى تسبب له أضرارا بالغة .

كهف آخر للقدرة .. هو قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

(الآية ١١ سورة الكهف)

الانسان حين يريد أن ينام .. فإنه محتاج الى هدوء كامل

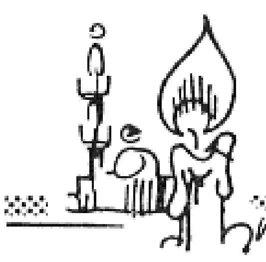
حوله .. لأن كل أعضاء الجسد تنام ما عدا الأذن .. فهى متيقظة لاتنام أبدا .. وهى آلة الاستدعاء من النوم الى اليقظة .. فأنت اذا أردت إيقاظ النائم .. وقربت يدك من عينيه حتى تلمسهما .. قد لا يشعر .. واذا وضعت يدك عليه قد لا يحس .. لكنك اذا أحدثت صوتا عاليا بجوار أذنه .. أحس واستيقظ على الفور .. واذا كان الصوت عاليا ومفاجئا فإنه قد يستيقظ منزعجا .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى .. قد جعل الضوضاء تختفى فى الليل ليعم السكون .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة يونس)

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى الليل سكنا .. حتى يستطيع الناس أن يناموا بالليل .. نوما هادئا يريح أجسادهم .. ليستطيعوا السعى بالنهار .. فلولا نوم الليل لما استطاع الانسان أن يسعى ويعمل بالنهار .. واذا شئت فجرب ألا تنام ليلة أو ليلتين .. حينئذ سيتجد نفسك عاجزا عن العمل .. ولابد أن تنام فترة طويلة .. حتى تصبح قادرا على العمل مرة أخرى ..

ألا فليعلم الناس أن الذى يهيج سكون الليل .. ويحدث فيه ضوضاء .. إنما يرتكب إثما .. لأن الله سبحانه وتعالى جعل سكون الليل وظلمته .. ليستطيع الناس أن يناموا نوما عميقا ، حتى يستطيعوا أن يؤدوا مهمتهم فى الحياة .



هؤلاء الفتية .. أراد الله تبارك وتعالى .. أن ينيمهم فى الكهف داخل الجبل نوما عميقا .. ولعدة سنوات طويلة .. وحتى لا تأتى أشعة الشمس وضوؤها فتوقظهم .. جعل أشعة الشمس .. تميل عن كهفهم اذا أشرقت .. واذا غربت لا يدخل من أشعتها الا القليل .. وتكون هذه الأشعة بعيدا عن أجسادهم .. وأراد الله تبارك وتعالى .. أن يحفظهم من كل الأصوات التى تقلقهم مثل العواصف والرياح والبرق والرعد .. وأصوات الحيوانات المفترسة التى قد تمر بالقرب من الكهف .. وكل هذه الأصوات إنما تزعج النائم .. وتجعله يستقيظ من نومه .

لقد ضرب الله على آذانهم ـ أى جعلها لا تعمل ـ وكان هذا كافيا لأن يعزلهم عن أصوات الدنيا كلها .. فلا يزعج نومهم شىء .. مهما أحاط بهم من أصوات وأحداث .

ولو أن آذانهم تركت كما هى .. لما استطاعوا النوم هذه الفترة الطويلة ، لأن الأذن تعمل طوال أربع وعشرين ساعة بلا توقف .. فالأصوات توقظ النائم رغما عنه .. ولكن السكون المطبق .. هو الذى يجعل الانسان ينام ولا يحس بشىء .

كهف ثالث للقدرة . . فقد أخفى الله سبحانه وتعالى عنا كل شيء عنهم . . ما عدا قصتهم . . فأخفى المكان . . وأخفى الزمان . . وأخفى أسماء الفتية . . وأخفى عددهم . . كل هذه الاخفاءات لها حكمة هي أن الله سبحانه وتعالى . . يريد أن يشيع عمومية الحدث فى كل الأزمان والأمكنة . .

لو أنه جل جلاله عرفنا زمنهم . . لقلنا هذه خصوصية زمان . . إن هذا كان يحدث فى الماضي ولكنه لا يحدث الآن . . إن هذا كان فى زمن ونحن فى زمن آخر . . ولو أننا عرفنا مكانهم . . لقلنا إن هذه خصوصية مكان . . بقعة مباركة اختارها الله سبحانه وتعالى . . ليحدث فيها حدث وينتهى . . تماما كما نادى الله موسى عليه السلام . . فى بقعة مباركة بجانب الطور الأيمن . . مصداقا لقوله :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾

(الآية ٥٢ سورة مريم)

هذه بقعة مباركة . . كلم الله فيها موسى عليه السلام . . ولكنها كانت خصوصية حدث . . أراد الله سبحانه وتعالى . . أن يكرم الله به نبيه موسى . . وخصوصية زمان . . وخصوصية لموسى عليه السلام ، ولكن اذا افترضنا أن أى بشر قد عرف مكان هذه البقعة وذهب اليها . . أيكلمه الله سبحانه وتعالى ؟

لقد أخفى الله تبارك وتعالى مكان أهل الكهف . . حتى لا يقال أنها خصوصية مكان حدثت . . ولا تتكرر فى أى مكان

آخر . . وتركه مبهما . . كما ترك الزمان مبهما . . ثم جاء الى أشخاص هؤلاء الفتية . . فأخفاهم عنا . . ولم يعلمنا بهم . . حتى لا يقال أنها خصوصية أشخاص . . وأن فلانا وفلانا كانا من الصالحين . . فأعطاهما الله ما لم يعط أحدا من العالمين .

بل وأكثر من ذلك . . أخفى عدد هؤلاء الفتية . . حتى لا نعطى هذا العدد أى معنى مقدس . . فنقول إن عددهم كان كذا . . وهذا عدد له معان كثيرة . . تماما كما قيل عن الرقم ١٩ . . وكيف أن هذا الرقم له أسرار ومعان . . وهذا الرقم جاء فى الآية الكريمة :

﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً ﴾

(الآيتان ٢٩ و ٣٠ ومن الآية ٣١ سورة المدثر)

هذا العدد دفع بعض الناس ان يقولوا ان الملائكة المكلفين بالنار تسعة عشر . . وعدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم تسعة عشر . وهكذا فإن النار محاطة برحمة الله ولن يعذب فيها أحد !

إن هذا الكلام مخالف للقرآن الكريم . . فأهل النار سيعذبون . . وقد أعطانا الله سبحانه وتعالى . . أكثر من صورة لعذابهم يوم القيامة فى آيات القرآن الكريم . . كما أن هناك أرقاما كثيرة . . يعطيها الناس معانى . . دون أن يكون لها أى معنى إلا أنها تمثل عددا معينا اختاره الله سبحانه وتعالى بمشيئته .

وهناك تفسيرات كثيرة . . عن الأرقام التى وردت فى القرآن الكريم كرقم ٧ ورقم ٤٠ ورقم ٨ . . الذى جاء فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الحاقة)

كل هذه أرقام هى باختيار الله . . وكل ما يحاول الناس أن يلصقوا بها من معان مختلفة تعطيها قدسية خاصة مرفوض . . لأن الله جل جلاله لم يخبرنا إلا أنها مواقيت وأرقام . . شاء أن يختارها . . ولذلك أبهم الله سبحانه وتعالى عدد أصحاب الكهف . . فقال تبارك وتعالى :

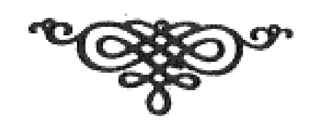
﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾

(الآية ٢٢ سورة الكهف)

وهكذا أخفى الله سبحانه وتعالى . . مكان وزمان وعدد أصحاب الكهف . . ليلفتنا الى أن هذه القصة يمكن أن تحدث

فى أى زمان . . وفى أى مكان . . لأى عدد من الفتية المؤمنين الذين يفرون بدينهم من طغيان الكفر . . فهؤلاء تشملهم رحمة الله . . فيعطيهم سعة الرزق . . ويعطيهم سعة المكان . . ويجعل الزمان يمر عليهم وهم لا يحسون بأى تعب أو معاناة . . أو أى شيء آخر يقلقهم أو يضرهم . . وهذا يحدث فى كل زمان ومكان .

نأتى بعد ذلك الى كهف آخر من كهوف هذه السورة . . وهى قصة صاحب الجنتين .



الفصل الثانى



الكهف الثانى
صاحب الجنتين

هذه قصة أخرى . . أبهم الله مكانها وزمانها ، والحكمة فى هذا الابهام . . أنها شائعة فى كل زمان ومكان . تلك هى قصة الغرور البشرى بالنعمة . . إن الله سبحانه وتعالى ينعم على من يشاء من عباده . . وهذه النعمة أقل ما تستوجبه هو الشكر والحمد لله . . والاعتراف بعظيم فضله وجليل نعمته .

لكن الانسان لا يأخذ النعمة هكذا . . لا يأخذ النعمة بالشكر . ولكنه يأخذها بالغرور . . ويحسب أنه قد حصل عليها بفكره وعمله . . وأنه بها قد استغنى عن الله سبحانه وتعالى . . الذى خلقه وخلق له النعمة . . وأعطاه القدرة على التمتع بها .

إن هذا الانسان ـ لغفلته ـ يتصور أنه بالنعمة قد استغنى عن المنعم وهو الله سبحانه وتعالى . . فيبدأ ينمقها وينميها . . ويحسب أنه فى منعة من قضاء الله . والله سبحانه وتعالى يقول فى شأن هؤلاء الغافلين :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾

(الآيتان ٦ ، ٧ سورة العلق)

ويقول تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٣ سورة الاسراء)

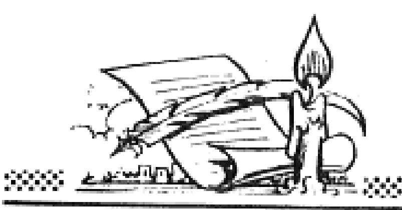
ذلك أن الغرور البشرى ، يصور للانسان أنه قادر وأنه يستطيع أن يفعل . . وأن الأرض تعطيه من كنوزها بقدرته هو . . وينسى أن كل شيء فى الكون . . خاضع لقدرة الله سبحانه وتعالى . وأن الأشياء التى تعطيه . . إنما سخرها الله له وأمرها أن تعطى . ولقد أراد الله سبحانه وتعالى . أن يلفتنا الى أن كل شيء فى الكون . خاضع لمشيئته جل جلاله . . فقال :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ ومن الآية ٢٤ سورة الكهف)

إنك لاتملك القدرة على الفعل فأنت لاتضمن بقاءك وحياتك الى الغد . . وإذا ضمنت حياتك . . فلا تضمن حياة من سيحقق لك ما تريد . وإذا ضمنت حياة الاثنين ، فإنك لن تضمن الظروف . فقد تمرض فلا تستطيع أن تفعل شيئا ، وقد يصاب ابنك أو اختك . أو أحد من أقاربك فى حادث يشغلك عن الذهاب . . فإذا لم يحدث هذا كله . فقد يصدر قرار يلغى ما تريد أن تفعله .

إذن . . عناصر الفعل ليست فى يدك . . ولكنها فى يد الله سبحانه وتعالى الذى هو حى لا يموت . . دائم الوجود . دائم القوة والقدرة . فَعَّالٌ لما يريد . . لا يستطيع أحد من خلقه أن يمنع قدره .



ولكن الناس تنسى هذا كله .. وتحاول أن تنسب الأفعال والنعم الى ذاتها .. والى فكرها .. والى قدراتها .. فيأتى الله سبحانه وتعالى ليأخذ النعمة .. أو ليأخذ صاحب النعمة .. ليلفتنا الى أن كل شيء بيد الله .. وأن الأسباب التى تعطى .. إنما تعطينا بقدرة الله جل جلاله .

إننا نقرأ فى القرآن الكريم قصة قارون .. لقد أنعم الله عليه وأعطاه مالا كثيرا ورزقا وفيرا ،لكن لما قيل له إتق الله فيما أعطاك وأنعم عليك .. أخذته العزة بالأثم وقال :

﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

فماذا فعل الله تبارك وتعالى به ؟ خسف به وبداره الأرض .. وهكذا أذهب الله النعمة ، وأذهب المُنْعَمَ عليه . ليلفتنا الى أن النعمة والمنعم عليه . هما من قدرة الله وليسا من قدرة البشر .

لو أن قارون كان صادقا . عندما قال «إنما أوتيته على علم عندى» لاحتفظ بالنعمة ، لأنه ادعى أنها من ذاته .. ولأبقى نفسه على قيد الحياة .. ولكنه فى كلتا الحالتين . كان عاجزا عن أن يفعل أى شيء .. فلا هو قدر على إبقاء النعمة .. ولا هو قدر على ابقاء حياته !



اسباب زوال النعمة

وقبل أن نبدأ الحديث عن صاحب الجنتين . . لابد أن نشير الى قصة أخرى جاءت فى القرآن الكريم عن أصحاب الجنة . . لقد جاءت القصة مبهمة فى زمانها . مبهمة فى مكانها وأشخاصها ، لتشيع فى كل زمان وفى كل مكان . . وبين الناس جميعا .

فى هذه القصة التى جاءت فى سورة القلم . يلفتنا الله سبحانه وتعالى الى مذهبات النعمة . . أى تلك الأفعال التى إن قام بها الانسان . . أذهب الله عنه النعمة . . وجعلها تفارقه . إنها قصة رجل صالح كان عنده جنة (أى بستان) فلفظ الجنة مأخوذ من الستر لأن الجنة بظلالها وثمارها ، وما فيها من أشجار . . إنما تستر من فيها بأغصان الشجر . . تستره فلا يراه من هو خارجها . . وثمار الجنة تستره فلا يحتاج الى الخروج منها للحصول على طعام أو شراب . . ففيها الطعام وفيها الشراب . . وفيها كل ما يحتاجه البشر فى معيشته . . وقد أخذ عن هذا اللفظ الجنون . . وهو ستر العقل .

ماذا قال الله تعالى عن أصحاب هذه الجنة ؟ . . أول شيء يلفتنا فى هذه القصة . . هو أن أصحاب هذه الجنة قرروا منع حق الفقير والمسكين فى ثمارها . . ولذلك أنزل الله سبحانه وتعالى على الجنة صاعقة فأحرقتها .

ولنبدأ القصة من أولها .. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴾

(الآيات من ١٧ ـ ٢٠ سورة القلم)

وهكذا نعرف أن الله سبحانه وتعالى . قد ابتلى أصحاب الجنة هؤلاء فى يوم الحصاد .. أى يوم الجنى وجمع الثمار .. وأنهم اتفقوا على أن يجمعوا ثمار هذه الجنة .. أو الحديقة فى الصباح الباكر ـ ولا يتركوا من ثمارها شيئا إلا جمعوه .. فأرسل الله سبحانه وتعالى عليها أثناء الليل ـ وهم نائمون ـ طائفا من عنده فأحرقها .. وأصبحت أشجارها محترقة .. ليس فيها ثمرة واحدة .. أصبحت خربة .. وأصحابها نائمون لا يحسون يحلمون بالثمر الوفير .. الذى سيحصلون عليه فى الغد »!

وقام أصحاب الجنة من نومهم ـ متجهين ليجنوا ثمارها . يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾

(الآيات من ٢١ ـ ٢٤ سورة القلم)

قام أصحاب الجنة من نومهم مبكرين . قبل أن يصحو أحد

من الناس .. وانطلقوا ليجنوا ثمارها .. وكانوا وهم يسيرون .. يتحدثون بصوت خافت حتى لا يتنبه اليهم أحد .. لماذا ؟ .. لأنهم قرروا أن يأكلوا حق الفقير والمسكين فى الثمار .. أى يمنعوا الزكاة التى فرضها الله سبحانه وتعالى للفقراء والمساكين .. ولم يكونوا يعلمون أن هذه الزكاة هى التى تبقى النعمة .. وهى التى تحفظ الرزق .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما ترزقون بضعفائكم) .

ولكن هؤلاء حسبوا .. كما يحسب كثير من الناس .. أن منع الزكاة ومنع حق الفقير .. يزيد المال .. وكيف لا ؟ .. والزكاة تأخذ جزءا من المال لتعطيه للفقير والمسكين .. ونسوا أن الزكاة والصدقة تُنمى المال وتمنعه من الزوال .. وتضع فيه البركة .. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما نقص مال من صدقه .

هؤلاء أصحاب الجنة . أرادوا أن يمنعوا الزكاة وحق الفقير والمسكين فيما أتاهم الله من نعمة .. فأذهب الله النعمة كلها وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى فى شأن أصحاب الجنة :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

(الآيات من ٢٦ ـ ٢٩ سورة القلم)

أصحاب الجنة عندما دخلوها . . فوجئوا أنهم أمام أشجار محترقة لا ثمار فيها . . فاعتقدوا أنهم قد ضلوا الطريق . . ودخلوا بستانا آخر غير بستانهم . . فقد كانت هذه بالأمس مليئة بالثمار . . أعطت محصولا وفيرا . . فأين ذهبت الثمار ؟ . . وما هذه الأشجار المحترقة ؟

لقد اعتقدوا أنهم ضلّوا الطريق ، فذهبوا الى مكان آخر . . فأسرعوا يتأكدون . . هل هذه هى جنتهم فعلا ؟ . . وفوجئوا بأنها هى الجنة نفسها التى كانت مليئة بالثمار بالأمس . والتى قرروا أن يجنوا ثمارها اليوم . . ولا يعطوا الفقير و المسكين حقه .

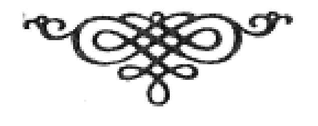
حينئذ تنبهوا الى أنه لابد أن يكون هناك ظلم قد وقع منهم وإلا ما عاقبهم الله بإحراق ثمارهم ، وعندما استمعوا الى قول أوسطهم . عرفوا أنهم بمنعهم حق الفقير والمسكين . . قد أذهبوا النعمة كلها . . واستحقوا غضب الله سبحانه وتعالى ، فأقروا بذنبهم وقالوا لا طريق أمامنا إلا أن نعود الى الله . ونعطى للفقير والمسكين حقه . ليبارك لنا الله تبارك وتعالى فى رزقنا .

هذه هى قصة اصحاب الجنة التى وردت فى القرآن الكريم . . لتنبهنا الى مذهبات النعمة . . أو الأسباب التى تجعل النعمة تزول . . وهى أن تمنع حق الفقير والمسكين فيما أنعم الله سبحانه وتعالى عليك به . فإذا أردت لنعمة أن تزول . فامنع حق الفقير والمسكين فيها .

ولقد شاء الحق سبحانه وتعالى . أن يخفى زمان ومكان

وأبطال هذه القصة . . لأنه فى أى زمان ومكان . . ومع أى من عباد الله إن كل من يمنع حق الفقير والمسكين . يذهب الله عنه النعمة .

لقد روى الحق سبحانه وتعالى لنا هذه القصة ، حتى نتجنب أسباب زوال النعمة . ونحرص على حق الفقراء والمساكين . . لأن هذا حق يبقى النعمة ولا يذهبها . . وينميها ولا ينقصها .





ثم أعطانا الحق سبحانه وتعالى سببا آخر .. من أسباب زوال النعمة .. فى قصة صاحب الجنتين . لنعرف أننا إذا نسبنا النعمة لأنفسنا زالت .

فى قصة صاحب الجنتين .. يضرب لنا الله سبحانه وتعالى مثلا برجلين جعل الله لكل منهما جنة . الأول نسب النعمة لنفسه ولعلمه .. والثانى نسب النعمة لفضل الله سبحانه وتعالى .

ولقد رويت قصص كثيرة عن شخصية هذين الرجلين .. من هما ؟

ولكننا لن نوردها هنا .. لأن هذا ليس الهدف من القصة .. وإنما الهدف من القصة هو العبرة .. وما يريدنا الحق جل جلاله أن نفهمه .. هو أن هذا حدث يحدث فى كل زمان ومكان . وهو ليس مقصوراً على أشخاص معينة . أو أماكن معينة . أو أزمان بعينها .

ولو عَرفنا الله تبارك وتعالى . أبطال القصة ومكانها وزمانها .. لقلنا أنها حادث خاص . له زمانه وله أبطاله . ولكنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم .. أنها قصة متكررة فى كل زمان ومكان .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴾

(الآيتان ٣٢ ، ٣٣ سورة الكهف)

هنا يلفتنا الحق سبحانه وتعالى : الى أن الجنتين أعطتا صاحبهما بالأسباب . فلأنه زرع وحرث وسقى واعتنى .. أعطته الرزق الوفير .. فكأن الأرض لم تظلمه .. أخذ بالأسباب فأعطته الأسباب .. ولم يقع أى ظلم عليه ..

إننا نأخذ بالأسباب ونسعى بها .. ولكننا لا نتنبه الى أن الأسباب تُخْفِى وراءها إرادة المُسَبِّبْ .

وهذا هو الكهف الحقيقى الذى يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا اليه .. لنعرف أن الأسباب لا تعطى بذاتها ، ولكن وراءها دائما إرادة المسبب .

ولكن لماذا يريد الله سبحانه وتعالى ان يلفتنا الى ذلك ؟ حتى لا نعبد الأسباب . ونترك خالق الأسباب .. وحتى لاتغرنا الدنيا .. فنعتقد أننا نستطيع أن نفعل بذاتنا .. دون الاستعانة بالمسبب .

إنَّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا أن نعبده وحده . وأن نعرف أنه إذا كانت هناك أسباب موجودة فى الدنيا . فإن يد الله ممدودة بالأسباب .

ويرينا الحق سبحانه وتعالى . ماذا يفعل الغرور البشرى حين يدخل النفس . . فيقول جل جلاله :

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾

(الآيتان ٣٤ ، ٣٥ سورة الكهف)

هذا هو الغرور البشرى . . فصاحب الجنتين يتفاخر على محدثه . بأنه أكثر منه مالا . كأنما هو الذى رزق نفسه بهذا المال . ويتفاخر أيضا بأنه أكثر أولادا . وكأنما هو الذى جاء بهؤلاء الأولاد ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : «ودخل جنته وهو ظالم لنفسه» .

ما هو هذا الظلم الذى أوقع نفسه فيه ؟ . إنه نسب لنفسه قدرات الله سبحانه وتعالى . . والله جل جلاله هو الذى أعطاه المال . . وهو الذى أعطاه الولد ، ولكنه بالغرور البشرى نسب هذا لنفسه . فحق عليه العقاب .

بل إن صاحب هاتين الجنتين تجاوز هذا كله . . وقال :

«ما أظن ان تبيد هذه أبداً» أى لا أظن أن هذه النعمة ستذهب أبدا . . إنها باقية لى ! وكأنه هو الذى يحفظها بقدرته . مع أنه لا يستطيع أن يحفظ حتى نفسه إلى أكثر من ذلك . . وتمادى أكثر واشتط فى غيه فقال كما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾

(الآية ٣٦ سورة الكهف)

وهكذا انكر القيامة . . وأنكر البعث . . لماذا ؟ لأنه يعيش فى نعمة دنيوية يريد أن تدوم . . إن الذى يقلق الناس ويؤرقهم فى الدنيا بالنسبة للنعمة . . هو الخوف من شيئين : إما أن تزول عنه النعمة . . وإما يزول هو عنها . . أى أن الانسان يخاف أن تذهب عنه النعمة . . إن كان غنيا يصبح فقيرا . . وإن كان يملك يصبح لا يملك . . وإن كان صحيحا معافى . يصبح مريضا لا يقدر على شيء . . وإن كان له أولاد . . يتوفاهم الله سبحانه وتعالى ويصبح بلا ولد .

هذه بعض النعم التى يمكن أن تزول . . فإن دامت النعمة . . فقد يزول هو عنها بأن يتوفى الله صاحب النعمة . . فيزول وتزول عنه .



إن صاحب الجنتين أراد أن يُمَنِّيَ نفسه بأن هذا لن يحدث له . فقال : «ما أظن أن تبيد هذه أبداً» أى أن هذه النعمة لن تزول عنه . إنها أبدية . فلما ذُكِّرَ بالموت والبعث أنكر . وقال إنه حتى إذا جاء البعث ويوم القيامة . . فسيعطيه الله سبحانه وتعالى نعماً أكبر .

لماذا ؟ . . لأنه اعتقد أن نعم الدنيا دليل على رضا الله تبارك وتعالى عن العبد . . وأن من هو مُنَعَّمٌ فى الدنيا . . مُنَعَّمٌ فى الآخرة . . وهذا غير صحيح . . فالله جل جلاله هو القائل :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

(الآية ٥٥ سورة التوبة)

وهكذا نرى أن المال والولد فى الحياة الدنيا ، قد لا يكونان نعمة . وإنما يكونان نقمة . . بأن يجعل الإنسان يغتر بماله وولده . . فلا يسلبهما منه ويظل كافرا بالله الى أن يأتيه الأجل . فيموت وهو كافر ، لأنه لو أذهب الله سبحانه وتعالى عنه المال والولد . . ربما اتجه الى السماء وآمن وتاب . ولكن الله لشدة كفر هذا الانسان . زاده كفرا بالنعمة ، فالله سبحانه وتعالى . .

يعين المؤمن على الايمان . . ويترك الكافر للشياطين تزيده كفرا .

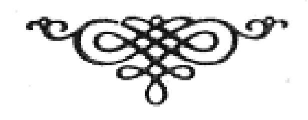
وهكذا فإن صاحب الجنتين . . أخذ نعمة الدنيا بغير مفهومها الحقيقى ، فاعتقد أنها ستدوم ، وتمادى فى غيه وظلمه وأنكر البعث والساعة . . ثم زاد على ذلك . . بأن حدد موقعه فى الآخرة . . بأن الله سيعطيه نعمة أكثر . . والله جل جلاله يكره هذا . . يكره من عبده أن يضع حدا على مشيئته سبحانه . . فيقول فى الآخرة سيحدث لى كذا وكذا . وإنما عليه أن يرجو ويدعو ويبتهل . ويتقرب من الله . . طالبا منه القبول .

إن الله سبحانه وتعالى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . . فلا يأتى مخلوق ليضع قيودا على مشيئة الخالق جل جلاله ، ويقرر لنفسه ويحدد موقعه حتى فى الآخرة !! بل كلنا يرجو الله . ويدعو الله ، وهو سبحانه وتعالى صاحب المشيئة . . إننا نجد فى القرآن الكريم صورة لهؤلاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ۝ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾

(الآيات من ٧٧ ـ ٨٠ سورة مريم)

وقد نزلت هذه الآيات الكريمة .. فى العاص بن وائل السهمى .. وكان عليه لأحد المؤمنين دين . فأتاه ليتقاضاه .. فقال لا أعطيك حتى تكفر بمحمد .. فقال المؤمن لا والله .. لا أكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام حتى نموت ثم نبعث .. فقال العاص بن وائل .. إذا مت ثم بعثت جئتنى .. فستجدنى صاحب مال وولد !! فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآيات .. فى أن هذا الكافر .. ادعى أنه سيكون له فى الآخرة مال وولد ونعم .. من أين جاء بهذا الكلام ؟ .. وهل أطلعه الله تبارك وتعالى على الغيب ؟ أم أخذ عهدا من الله جل جلاله بأنه سيعطيه فى الآخرة المال والولد ؟ !





وسيزداد عذابا

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى .. ان ما يقوله هذا الكافر سيكتب .. وسيزيده عذابا فى الآخرة .. وسيترك الدنيا بكل ما كان يملك فيها .. ويأتى فى الآخرة بمفرده . بلا مال ولا ولد .

إن الله تبارك وتعالى . يكره من عبده ـ كما قلت ـ أن يعطى حكما يحدد منزلته فى الآخرة لأنه لم يطلعه على الغيب .. ولم يتخذ واحد منا عند الله عهدا .. ولكن صاحب الجنتين ادعى أنه فى الآخرة .. سيكون له مال وولد .. وهكذا نصب نفسه حكما على منزلته فى الآخرة .. حينئذ يحاول صاحبه ان يرده الى الصواب .. فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

(الآيتان ٣٧ ، ٣٨ سورة الكهف)

إن صاحبه يحاول أن يفيقه من غروره .. بمنطق الايمان .. قائلا له : من أنت حتى تقول هذا الكلام ؟ ! تَذَكَّرْ أنك كنت حفنة من تراب .. لا حياة فيها ولا قيمة لها .. والله سبحانه وتعالى هو الذى نفخ فيك الروح .. وجعلك بعد أن كنت نطفة

لا تُرى بالعين المجردة . . رجلا مليئا بالقوة والقدرة . ثم يقول له كما جاء فى القرآن الكريم : .

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

(الآية ٣٩ سورة الكهف)

أى أفق واعرف الحقيقة . . وهى أن الله سبحانه وتعالى . . هو الذى أعطاك هذه النعم كلها . . ولو أنها بقدرتك وقوتك . . لاستطعت المحافظة عليها . . ولكن الله سبحانه وتعالى.. يستطيع أن يذهبها متى شاء . . وليس الفضل لك فى أنك أكثر منى نعمة . . بل هو من الله الذى لو شاء لأذهب هذا كله . .

ثم يقول الحق جل جلاله مخبراً عما صار اليه من أعماه غروره :

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

(الآية ٤٢ سورة الكهف)

وهكذا أذهب الله سبحانه وتعالى النعمة . فغار الماء وضاع الثمر وأصبح لا حياة فيها . . ليعلم صاحب الجنتين ـ ومن على شاكلته فى كل زمان ومكان ـ أن كل ما ملكه أو يملكه ليس من عنده ولا بقوته ، وإنما كان من عند الله وبإرادته .

إذن فالأسباب تحمل مشيئة المُسَبِّبْ وهو الله سبحانه وتعالى . . فالانسان السطحى هو الذى يقف عند الأسباب . . أما المتعمق فهو الذى يقف عند المسبب . . لأنك لو ادعيت انك أتيت بالنعمة بأسبابك . . نقول لك حافظ عليها بأسبابك . .

فى هذه القصة الحق سبحانه وتعالى . . أراد أن يعطى مثلين فى الدنيا . . مثل للايمان ، ومثل للكفر ، المؤمن يقول الله يعطينى . . وانتفاعى بالنعمة هو ما قدره الله لى . . وهذا يدلنا على أن المؤمن ينظر الى حقائق العطاء ، ولا ينظر الى ذات العطاء . . لأنه قد يكون فى المنع عطاء . . ويكون المنع أثمن من النعمة ذاتها . . أنت تظن أنه لم يعطك لكنه فى الحقيقة ـ بهذا المنع ـ قد أعطاك أفضل مما تحتاجه .

ولنضرب لذلك مثلا . . ولله المثل الأعلى : حين يطلب الابن من أبيه أن يشترى له مسدسا . الأب يرفض . . والابن يعتقد أن أباه قد منعه من شيء يريده . ولكنه فى الحقيقة أعطاه الأمان ، وهو أثمن من السلاح الذى كان سيشتريه . . لأن الابن لا يضمن ـ ساعة يثور ـ أن يخرج سلاحه ويقتل . . فكأن عدم إعطائه السلاح . . خير كبير له . منع عنه شرا وبيلا .

الله سبحانه وتعالى يمنع عن بعض الناس المال . فيعتقد هذا

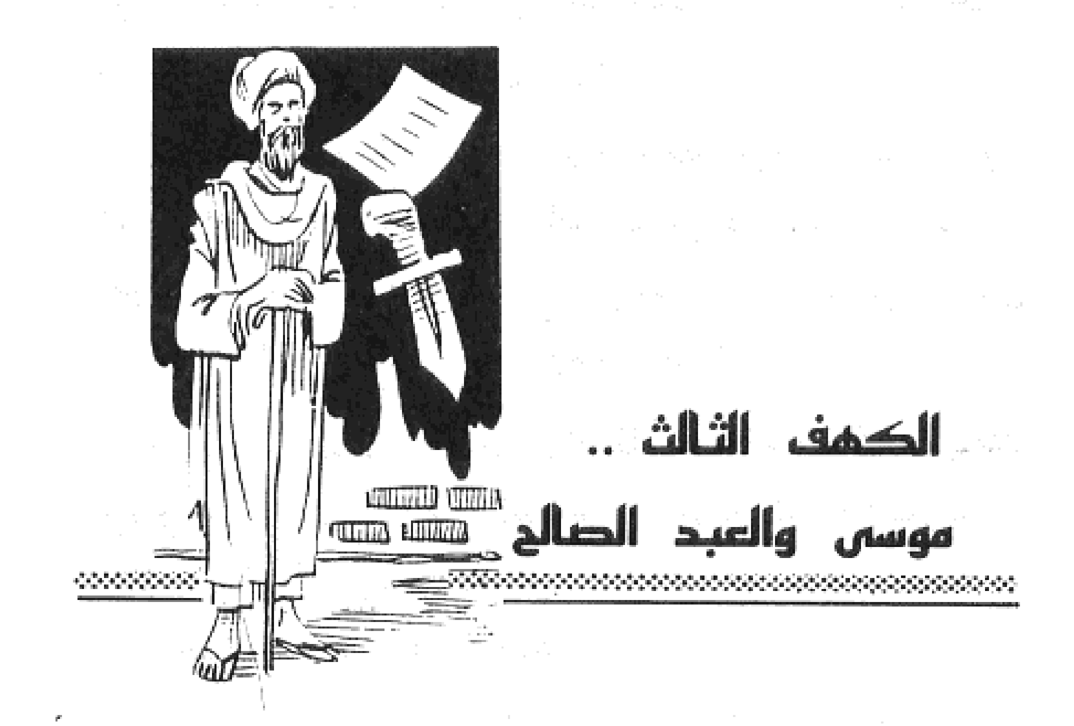
البعض أن هذا المنع حرمان أو عدم استجابة لطلبهم إياه ، بينما المنع فى الحقيقة هو عين العطاء . . لأن المال كان سيفسده . كان سينفقه على المعصية وشرب الخمر والمخدرات . . فيزداد إثما ويزداد فقرا . . رغم أنه أُعْطِىَ المال . . ولذلك فإن المنع هنا هو عين العطاء .

وإذا كان العطاء من حكيم ، فاعلم أن لكل شيء حكمة . . فقد يعطى الله الانسان مالا . . ولكنه يسلبه الصحة فلا يتمتع به . يرى الطعام أمامه فلا يستطيع أن يتناول لقمة . . أو يسلط على ابنه مرضا . فينفق الأب ماله كله وهو يتألم ويتعذب لمرض ابنه . أو يستخدم المال فى الشر . . ولكن الله تبارك وتعالى قد يعطى الصحة والستر والبركة لتحقق لك حياة أفضل .

إذن فالعطاء قد يكون شرا .. والمنع قد يكون هو العطاء الأوسع . . والأكثر أمنا وأمانا .

ننتقل بعد ذلك الى كهف آخر . . من كهوف سورة الكهف وهى قصة موسى والعبد الصالح .

الفصل الثالث



الكهف الثالث ..
موسى والعبد الصالح

إن سورة الكهف ـ كما قلنا ـ مليئة بالكهوف المعنوية .. التى يجب أن نلتفت اليها .. وقصة موسى والعبد الصالح .. يلفتنا فيها الله تبارك وتعالى .. إلى أن هناك اشياء ظاهرة فى الكون .. وهناك كهوف تخفى الحقائق قد لا نتنبه لها ..

إن سبب ما نعانيه من متاعب فى الدنيا ، هو أننا نقف عند الاشياء الظاهرة فقط .. فإذا حدث أمامنا شيء نكرهه .. اعتقدنا انه شر .. واذا حدث أمامنا شيء نحبه .. اعتقدنا انه خير .. واقول لك : إياك من هذه الظواهر .. إياك أن تجعل نفسك حكما لأقدار الله فى كونه ..

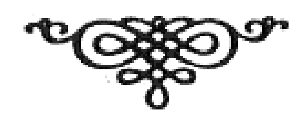
إن أحدا منا لم يؤت من العلم ما يجعله يعرف ما هو خير وما هو شر .. والاحداث تقع امامنا بظاهريتها فقط ، ولكن قد يكون الشيء الذى نحسبه خيرا هو شر كبير .. والشيء الذى نحسبه شرا .. يكون خيرا وخيرا عميما ..

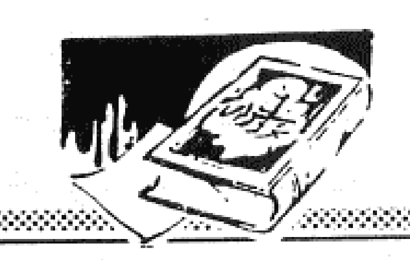
هذا هو الكهف .. الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا اليه فى قصة موسى والعبد الصالح .. فهذه القصة اظهرت لنا بعض اسرار الله سبحانه وتعالى .. فى ظواهر الكون .. وكيف ان الحقيقة تختلف عن الظاهر ..

واذا أردنا ان نضرب مثلا .. يقرب ذلك إلى الأذهان .. نقول : هب أن ابنك مريض .. وذهبت به إلى الطبيب

وشخص المرض . . وحدد له العلاج والطعام . . ولم تشأ ان تخبر زوجتك بحقيقة مرض الابن حتى لا تزداد انزعاجا . . خصوصا إذا كان مرضه خطيرا ، ولكنك قلت لها : أنه يأكل كذا ولا يأكل كذا . . والأبن يحب من الاطعمة ما يضره . . ويطلب من أمه ذلك . . وقد تعطيه الأم ما يطلب . . وتحسب بذلك انها تفعل خيرا . . بإجابة رغبات ابنها . . وتحس ان من واجبها أن تعطيه وتعطيه . .

هل تعرف الأم فى هذه الحالة انها تضر ابنها ؟ طبعا لا . . لأنها لا تعرف خطورة مرض ابنها . . ولو علمت الحقيقة لعرفت انه من الخير أن تمنع عنه الطعام . . ولكن عدم علمها هو الذى جعلها ترى الشر خيرا والخير شرا .





كذلك البشر . . لأنهم لا يعلمون . . فإنهم يأخذون ظاهر احداث الكون ، ولا يلتفتون إلى ان الذى اجرى هذه الأحداث وهذه الاقدار حكيم . . وأن كل شيء عنده يجرى بحكمه .

أول كهف فى قصة العبد الصالح وموسى . . هو كهف العلم . . إن الله سبحانه وتعالى يعطى العلم لمن يشاء . . موسى عليه السلام رسول من أولى العزم ، والعبد الصالح تقرب الى الله سبحانه وتعالى . . بما جاء به موسى . . ولكنه فى تقربه من الله ، أعطاه الله جل جلاله علما لم يعطه لرسول من أولى العزم . حتى نعلم . . أن باب الله مفتوح . . وان عطاءاته لا تنفد . . وأننا اذا اخلصنا له العبادة . . فإنه قادر على ان يعطينا من نعمه الكثير لأن علم الله سبحانه وتعالى لا ينفد

لقد أراد الحق سبحانه وتعالى ان ينبهنا إلى ان العلم الذى اعطاه للعبد الصالح . . ليس علما قرأه العبد الصالح فى الكتب . . أو حصل عليه باطلاعه . . ولكنه علم من الله سبحانه وتعالى . . فقال جل جلاله :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

(الآية ٦٥ سورة الكهف)

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه : « من لَدُنَّا » . . أى ان هذا العلم جاء من الله مباشرة للعبد الصالح . . ولم يأت عن طريق اطلاع أو قراءة . . أو عن طريق موسى عليه السلام . . ولكنه كان من الله الى العبد الصالح مباشرة . . وبهذا أصبح العبد الصالح ـ فى الاشياء التى علمها الله له ـ يعلم الظاهر والباطن . . يعرف ما هو حادث . . ويعرف السر وراء الحدث . . وكان موسى عليه السلام . . يعرف ان العبد الصالح يعلم ما لا يعلمه موسى . . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

(الآية ٦٦ سورة الكهف)

إذن فموسى عليه السلام . . كان يعلم ان العبد الصالح . . يعلم ما لا يعلمه هو . . ولذلك طلب من العبد الصالح . . أن يُعَلِّمَهُ مما علمه الله . . ولكن العبد الصالح كان يعرف أن موسى لن يصبر على ما سيراه . . لأنه يرى الظاهر فقط . . ولا يعرف السر . . ولذلك فإنه سيضيق صدره بما يرى امامه من اشياء يعتقد انها شر . . بينما هى خير . . فالانسان الذى يرى الظاهر فقط . . قد يضيق صدره بأقدار يراها أمامه . .

الصبر على المكاره . . سمة المؤمن الحق . . إنه لا يدرى مقادير الله وحكمته فيما أَلَمَّ بهْ من مكروه . . أو لما يراه أمامه من أمور خفية لا يعرف كنهها . . فربما بعد فترة يعرف حقيقة القضاء الذى تم . . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالصبر وجعل ثوابه الجنة . . وذلك مصداقا لقوله تبارك وتعالى :



(الآية ١٢ سورة الانسان)

الحق سبحانه وتعالى . . طلب منا أن نتمسك بالصبر . . لأننا لا نرى من اقدار الله . . إلا ظاهر الحياة الدنيا . . ولم نؤت من العلم ما يجعلنا نعرف من اسرار الله فى كونه . . ولأننا لا نعرف الحقيقة . . فإن صدورنا تضيق . . ولكن لأننا مؤمنون . . نعرف ان لله سبحانه وتعالى حكمة فى قضائه وقدره . . فنصبر ونحن واثقون ان ما حدث هو خير لنا . . رغم ان ظاهره تضيق به الصدور .

موسى عليه السلام . . حين طلب ان يكون مع العبد الصالح . . حتى يتعلم من العلم الذى أعطاه الله له . . عرف العبد الصالح أن موسى لن يستطيع معه الصبر ، لأنه لا يعرف الحقيقة كلها . .

ويروى لنا القرآن الكريم حكاية موسى عليه السلام والعبد الصالح.

فيقول جل جلاله :

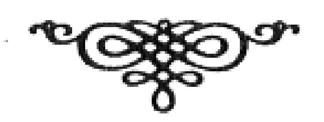
﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾

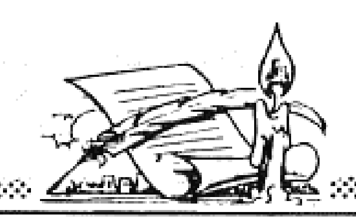
(الآيتان ٦٧ و ٦٨ سورة الكهف)

ولكن موسى عليه السلام .. كان يريد ان يزداد معرفة بأسرار علم الله .. ولذلك قال كما يروى لنا الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾

(الآية ٦٩ سورة الكهف)



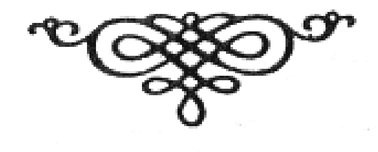


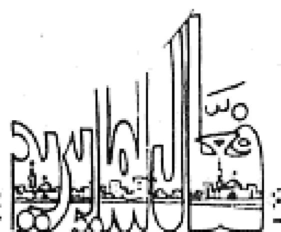
إن محاولة موسى عليه السلام .. فى أن يصاحب العبد الصالح .. كانت بلا شك ستنتهى بالفراق .. لأن العبد الصالح يعلم ماخفى عن موسى . ولذلك فإن كثيرا من الصالحين عندما عوتبوا فى أشياء قالوها .. قال أحدهم اللهم إنك علمتنى علما لو علموه ما فعلوا ما فعلوه .. ولو سترته عنى .. ما فعلت ما فعلته ..

إن هذا يعنى ان بعض الصالحين لهم أسرار لا يراها غيرهم .. والعالم ملىء بأسرار كثيرة .. الظاهر من الاحداث حكم عام للناس .. والباطن أو الحقيقة يطلع الله سبحانه وتعالى عليها من يشاء من خلقه .. نفحات تهب على بعض الصالحين .. قضى الله سبحانه وتعالى بها .. حتى إذا حدث لانسان شيء ضاق به صدره .. ذهب إلى هؤلاء الصالحين .. فربما استطاعوا ان يعينوه على الصبر .. وذلك كما سيأتى بعد فى قصة الغلام .. الذى قتله العبد الصالح .

الله يعطى هذا العلم .. لاصلاح نظرة بعض الناس للحياة .. فمثلا إذا مات لانسان ابن . فإن ما يخفف من حزنه أن يعرف ان هناك حكمة وراء هذا ، وأنه ربما كان هذا الابن الذى يحسب أبوه انه عندما يكبر سيكون عونا وفخرا له .. ربما

كان هذا الإبن هو الذى كان سيدفع الأب إلى ان يطغى ويظلم ويسرق . . ويؤدى به الى النار والعياذ بالله . . فيأتى قضاء الله تبارك وتعالى . . فيتوفى الابن ليريح الأب من متاعب ومعاص وآثام . . لو علمها الأب لدعا الله أن يتوفى ابنه .





وهكذا نعرف انه لو وقع حدث على غير مرادنا .. أو غير ما نريده .. فإننا لا نأخذ هذا الحادث بظاهر حدوثه .. ويجب أن نعلم ان له حكمة .. ربما اخفاها الله عنا .. ولكنها بلا شك خير لنا .. وعندما يأتى الوقت الذى يطلعنا فيه الله سبحانه وتعالى على هذه الحكمة .. فإننا نحمد الله على قضائه .

إن كل حدث فى الكون له حكمة .. لو أنت عرفتها لسعيت بنفسك إلى الحدث .. ودعوت الله ان يتم .. ولذلك عندما فسر العبد الصالح سر ما فعله لموسى عليه السلام .. عرف موسى ان ما فعله العبد الصالح خير، ولو أوتى موسى العلم لفعل مثل ما فعل العبد الصالح ، ولكن رؤية موسى عليه السلام للظاهر فقط ، دون حقيقة الأمر ، جعلته ضيق الصدر .. لا يصبر على ما يحدث .. ولكنه أصر على مصاحبة العبد الصالح .. فقال له :

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

(الآية ٧٠ سورة الكهف)

لقد طلب العبد الصالح من موسى عليه السلام .. ألا يسأله

امام الناس عن سر ما يحدث ، حتى يجين الوقت الذى يروى له فيه العبد الصالح سر الاحداث التى وقعت ..

وانطلق الاثنان معا .. وكان أول ما فعلاه أنهما ركبا سفينة يملكها مجموعة من المساكين .. وقد قيل إن المسكين هو الذى لا يملك شيئا .. ولكن هذه الآية الكريمة بينت لنا أن المسكين .. هوالذى لا يملك ما يكفيه .. إنه قد يملك ولكن ليس ما يكفى مقومات حياته .

ركب موسى والعبد الصالح .. هذه السفينة التى يملكها المساكين .. واذا بالعبد الصالح بدلا من أن يساعد هؤلاء المساكين .. يخرق لهم السفينة !! وذهل موسى .. كيف يفعل العبد الصالح ذلك ؟ أبدلا من ان نساعد هؤلاء المساكين .. نعيب سفينتهم ؟ .. ولنقرأ قول الحق جل جلاله :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(الآية ٧١ سورة الكهف)

ذهل موسى من تصرف العبد الصالح .. كيف يخرق سفينة المساكين ؟! فقال له : لقد فعلت شيئا منكرا .. وهنا نظر اليه العبد الصالح بهدوء .. وقال له :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

(الآية ٧٢ سورة الكهف)



لماذا لا يستطيع موسى صبرا ؟ . . لأنه لا يعرف الحقيقة . . أما الحقيقة فهى كما رواها له العبد الصالح بعد ذلك . . فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

(الآية ٧٩ سورة الكهف)

وهكذا عرفنا السر وراء خرق السفينة . . وهو أن هناك ملكا ظالما . . كان يأخذ كل سفينة بالقوة . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يبقى هذه السفينة لهؤلاء المساكين . . فجعل العبد الصالح يخرقها . . أى يجعل فيها عيبا . . حتى لا يأخذها هذا الملك الظالم . .

والمقارنة هنا لا تكون بين سفينة سليمة . . وسفينة فيها عيب أو خرق . . ولكنها تكون بين سفينة فيها عيب ولا سفينة على الاطلاق . . أيهما خير للمساكين ؟ . أن تبقى لهم السفينة فيها عيب يصلحونه . . أو لا تكون هناك سفينة على الاطلاق باستيلاء الملك الظالم عليها ، وتجريدهم من كل ما يملكون ؟ . طبعا خير للمساكين ان تبقى لهم السفينة وفيها عيب . . عن أن يستولى عليها الملك . . ولا يعودون يملكون شيئا . . اذن

ما فعله العبد الصالح . . رغم أن ظاهره شر . . إلا أن حقيقته خير لأصحاب السفينة .

وانطلق موسى والعبد الصالح . . ووقع الحدث الثانى . . كما يروى لنا الله سبحانه :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾

(الآية ٧٤ سورة الكهف)

انطلق موسى والعبد الصالح . . فإذا بالعبد الصالح يجد غلاما صغيرا فيقتله . . وهنا ثار موسى وقال للعبد الصالح . . كيف تقتل هذا الغلام ؟ . . هذا الغلام هو نفس زكية . . لم يبلغ بعد مبلغ التكليف . . وهو نفس خلقها الله وحرم قتلها إلا بالحق . . فكيف تقتله بلا ذنب وبلا نفس ؟ . . كيف تفعل ذلك ؟ . . وهنا نظر إليه العبد الصالح معاتبا فى هدوء . . قائلا :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

(الآية ٧٥ سورة الكهف)

لكن كيف يصبر موسى عليه السلام وهو لا يعرف إلا الظاهر . . لهذا ضاق صدره . . ولو علم سر قتل الغلام لاستراح . . هذا السر رواه لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن

يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾

(الآيتان ٨٠ و ٨١ سورة الكهف)

وهكذا نعرف ان الغلام كان أبواه مؤمنين . . وأنه كان سيقود أبويه إلى طريق الفساد والطغيان والكفر . . بما سيطلبه وما سيفعله . . وما سيكون له من تأثير عليهما . . فأراد الله سبحانه وتعالى برحمته ان يجنب هذين الأبوين المؤمنين المتاعب الرهيبة ، والألم والضيق والضغط النفسى ، الذى كان سيسببه هذا الأبن لهما عندما يكبر . . بأن يدفعهما إلى السرقة وإلى ارتكاب ما يغضب الله . . فرحمهما الله برحمته من كل هذا العنت . . ليرزقهما بغلام آخر صالح .

وإذا أردنا ان نقرب هذه الصورة إلى الاذهان . . نقول : هب أن أبوين صالحين رزقا بطفلة . . وتوفاها الله سبحانه وتعالى وهى صغيرة . . ثم أطلعهما الله على الغيب . . فإذا بهما يعرفان أن هذه الطفلة عندما تكبر وتصبح امرأة ناضجة . . كانت ستحترف الدعارة . . ألا يحمدان الله سبحانه وتعالى . . على أنه توفاها وهى صغيرة ، ورحمها ورحمهما مما كان سيحدث . . رحمها لأنها ما دامت قد ماتت قبل سن التكليف . . فستدخل الجنة بغير حساب . . ورحمهما بأن جنبهما الشقاء الذى كان سيحدث فى حياتهما . . نتيجة سلوك هذه الابنة .

وكان القضاء رحمة للجميع !

كذلك في قصة هذا الغلام .. الذى قتله العبد الصالح .. هذا القتل كان رحمة لكل أبطالها .. رحمة بالأب والأم .. بأن جنبهما الله شقاء كان سيأتي على يد هذا الغلام .. يملأ حياتهما بالطغيان .. ويقودهما إلى الكفر والعياذ بالله .. ورحمة بهما أيضا لأن الله سبحانه وتعالى - لأنهما مؤمنان - لم يشأ أن يتركهما بلا ذرية ، فرزقهما غلاما صالحا خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، يملأ حياتهما بهجة .. وينسيهما فقد الأبن الأول .. أما الغلام فقد رحمه الله بأن توفاه قبل ان يدخل سن التكليف .. ليدخل الجنة بلا حساب .

وهكذا كان حادث قتل الغلام .. مليئا بالرحمة من كل جوانبه .. ولكن لأن موسى عليه السلام لم يعرف الحقيقة .. ثار وهاج عندما رأى العبد الصالح يقتل نفسا بدون حق .. واعتبر هذا شرا ومعصية لا يمكنه السكوت عليها .

واتفق موسى مع العبد الصالح .. على انه اذا سأله عن شيء بعد ذلك أو استنكره يكون هذا فراقا بينهما .. فلا يصاحبه وتنتهي هذه الصحبة .. ولذلك يروى لنا القرآن الكريم .. عن موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي

﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾

(الآية ٧٦ سورة الكهف)

لكن هل سكت موسى . . وهل استطاع الصبر على ما يرى من ظواهر الأمور ؟

سار موسى والعبد الصالح حتى دخلا إلى قرية من القرى . . وكان أهل القرية لئاما لا يكرمون الضيف . . ولا يحسنون على الفقير . . وصلا اليها وقد بلغ منهما الجوع مبلغا شديدا . . فطلبا الطعام من أهلها فرفضوا . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ومن الاحداث نعرف . . مدى لؤم وخسة أهل هذه القرية . . لأن موسى والعبد الصالح طلبا طعاما . . وأصدق السؤال هو سؤال الطعام . . فلو أن أحدا سألك مالا . . قد تقول إن عنده المال . . ولكنه يريد ان يتملك أكثر وأن يخزنه ، ونحن نرى بعض المتسولين يموتون وعندهم ثروات كبيرة ، ولكن الذى يسألك لقمة يأكلها هو صادق فى سؤاله .

أهل القرية رفضوا إعطاء موسى والعبد الصالح لقمة يأكلانها . . حينئذ اتجه العبد الصالح إلى جدار فى القرية . .

جدار قديم كان سيتهدم . . فبناه وقواه وجمله .

هذه الصورة يرويها لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(من الآية ٧٧ سورة الكهف)

ولم يسكت موسى عليه السلام وإنما ثار على العبد الصالح عندما ذهب الى هذا الجدار المتهدم فبناه وجمله . . فقال له كيف يرفض أهل القرية هؤلاء ان يعطونا لقمة نأكلها . . ثم تبنى لهم هذا الجدار مجانا وبلا مقابل ؟! . . على الاقل كنت تطلب منهم اجرا على ذلك ، فهم لا يستحقون هذا الخير منك بعد أن رفضوا اعطاءنا لقمة نأكلها . . وكان لابد أن يحدث هذا الفراق بين موسى والعبد الصالح . .

أما لماذا بنى هذا الجدار فى القرية رغم لؤم أهلها ؟ . . إن القرآن الكريم يروى لنا السبب الذى خفى على موسى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الكهف)

وهكذا أبلغ العبد الصالح موسى أنه لم يفعل خيرا فى أهل

هذه القرية اللئام . . بل منع عنهم الخير جزاء على لؤمهم وخستهم . .

فهذا الجدار الذى كان سيتهدم تحته كنز . . والكنز صاحباه غلامان صغيران يتيمان . . وكان أبوهما صالحا . . لنعرف ان العمل الصالح للأب . . يبقى لأولاده فى دنياهم . .

لكن لو ان هذا الجدار تركه العبد الصالح بدون بناء لانهدم ولظهر الكنز الموجود تحته . . ولأن الغلامين صغيران لا يستطيعان أن يدافعا عن مصالحهما . . ولكون أهل القرية لئاما لو عثروا على الكنز لأخذوه ولم يعطوا الغلامين منه شيئا . . فإن العبد الصالح قام ببنائه بناء موقوتا . . ليحرم أهل القرية من الكنز ويبقيه للغلامين . . حتى اذا بلغ الغلامان مبلغ الرجولة . . وأصبح فى استطاعتهما حماية مصالحهما والدفاع عنها . . انهار هذا الجدار وظهر لهما كنزهما .

بهذا التوضيح نعلم أن ما فعله العبد الصالح . . كان رحمة للغلامين الصغيرين . . وحرمانا لأهل القرية اللئام من الاستيلاء على الكنز . .

إن موسى عليه السلام ـ لأنه يحكم بالظاهر ـ فهم ان بناء الجدار لصالح أهل القرية . . ولكنه فى الحقيقة كان ضدهم .

الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نعلم . . أنه إذا أعطى علما لأحد من خلقه . . فإياك ان تقيسه بعلمك أنت . . فكل ما فعله العبد الصالح كان خيرا . . ولكن موسى ـ لأن عنده

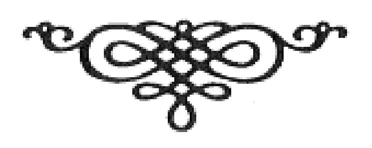
ظاهر العلم - رتب على الاحداث التى امامه نتائج بعيدة عن الحقيقة .

ولابد ان نعلم ان لله اسرارا يضعها فى بعض خلقه . . فإن صادفك سر من هذه الاسرار فلتسكت . . ولا تحاول أن تعطى الاشياء غير حقيقتها . . ومهماكان الانسان عالما ، فهناك من هو أعلم منه .

لقد انتقد أحد العلماء تصرف رجل من أهل المعرفة فقال هذا الرجل للعالم : أنت عالم ، ولكن اتدعى أنك قد أحطت بكل علم ؟ . . فقال العالم لا . . فقال له الرجل : أنا من الذى لا تعلم . .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الاسراء)



الكون ملىء بأسرار كثيرة .. ما يصدقه عقلك صدقه .. وما لم يصدقه فلا تكذبه .. ولا تتهم غيرك بما لا تفهمه .. واذا كانت النهاية بين موسى والعبد الصالح .. أن قال له كما يروى القرآن الكريم :

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الكهف)

فاعلم انه فراق بين أهل المعرفة وأهل الظاهر ، وأنهما لا يمكن أن يلتقيا .

وهكذا نعرف .. أن الله سبحانه وتعالى قد وضع فى هذه القصة كهفا من الحقيقة .. هى ان ظواهر أحداث الكون لا تدل على حقيقتها ، وأن عدم علمنا بالحقيقة يجعل صدورنا تضيق بأقدار الله سبحانه وتعالى ، ولكن لابد أن نصبر .. وأن نعلم ان لله حكمة فى كل أقداره وإن غابت عنا ، وألا نأخذ الظاهر على أنه كل الحقيقة .. وأن نعرف أن الانسان ـ بعلمه المحدود ـ لا يمكن أن يعرف أين الخير وأين الشر .. فلنأخذ قضاء الله سبحانه وتعالى على أنه كله خير .. وأننا إن علمنا شيئا فقد غابت عنا أشياء .

وننتقل إلى كهف آخر من كهوف سورة الكهف .. ننتقل إلى قصة ذى القرنين .

الفصل الرابع



الكهف الرابع
ذو القرنين

قصة ذى القرنين .. هى ككل قصص القرآن الكريم فيها عبرة .. فالقصص فى القرآن لا تروى للتسلية .. ولا تكون حكاية تُقصّ وتُروى للناس .. وإنما تروى للعبرة منها .. والعبرة مأخوذة من العبور .. والعبور معناه أن ننتقل من شيء إلى شيء .. كما نعبر الشارع من جانب إلى آخر .. والعبرة تتحقق بأن ترى المخاطر فلا تقع فيها .. أو ترى الخطأ فتتجنبه .. أو ترى الخير فتفعل مثله .. أو ترى الشر فتبتعد عنه .

إذن فقصص القرآن الكريم لم ترد للتسلية .. ولا لقتل الوقت .. انها تأتيك بأخبار حقيقية وقعت .. لتعرف منها كيف تم تطبيق منهج الله عمليا .. وكيف ينتصر الحق على الباطل .. وكيف أن الله سبحانه وتعالى يحق الحق بكلماته .. هذه قصة حدثت فى التاريخ يرويها القرآن الكريم .. أصدق رواية .

إن منهج الله الذى نزل من السماء .. يمثل النظرية التى تأتى لتطبق فى الحياة فيثبت صدقها .. فالله سبحانه وتعالى .. حين يقول إفعل ولا تفعل .. إنما يعطينا المنهج .. ولكن يبقى التطبيق الذى يثبت بواقع الأحداث أن كل ما جاء فى المنهج صحيح .. وأن الحق ينتصر دائما على الباطل .. وأن الذى يتبع منهج الله .. يعيش فى سلام مع نفسه .. ومع الكون .

لقد اختار الله سبحانه وتعالى .. كل رسله من البشر .. لماذا ؟ .. ليطبقوا أمام الناس ما جاء فى المنهج .. فيصلوا كما

أمرهم الله . . ويعيشوا بمنهج الله . . معتمدين عليه . . وينتصروا بقدرة الله . . ويعرف الناس جميعا أن الله سبحانه وتعالى . . لا يكلفهم ما لا يطيقون . . لأن الرسول هو بشر من جنسهم . . عاش بينهم ويعرفونه . . طبق المنهج وزاد عليه من جنس ما فرض الله .

الله سبحانه وتعالى فرض خمس صلوات فى اليوم والليلة . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كان يقوم ثلثى الليل . . يُصلى من جنس ما فرض الله . . ولكنه زيادة عما فرض .

والله سبحانه وتعالى فرض صوم رمضان . . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان له صيام تطوع . . من جنس ما فرض الله . . ولكن زيادة عما فرض . . وهكذا كل العبادات من صدقة وزكاة وغيرها . . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم . يؤديها ويزيد عليها . . لماذا ؟ . . حتى نعرف أن الله سبحانه وتعالى فى منهجه كان رحيما بعباده . . وفرض عليهم أقل مما يطيقون . ولو أن الرسول كان مَلَكاً . . أو من غير البشر . . لقال الناس هذا مَلَكٌ مقهور على الطاعة . . مخلوق من نور . . لا طاقة لأن نقتدى به . . لأننا خلقنا من طين وأعطينا الاختيار .



حتمية بشرية الرسول

إننا نرى أن بشرية الرسول حتمية لتطبيق الرسالة . . حتى لا يأتى الناس يوم القيامة مجادلين فى أن الله سبحانه وتعالى كلفهم ما لا يطيقون . . لهذا كان الرسول بشرا . . رجلا يعرفه قومه قبل الرسالة . حتى لا يقولوا هذا بشر أعطاه الله قدرات فوق قدراتنا . . ويطبق أمامهم المنهج . . فيقوموا بكل العبادات . . وهكذا تكتمل النظرية مع التطبيق . .

لكن لو تركت النظرية بلا تطبيق . . لقال الناس إن الله سبحانه وتعالى . . قد أرسل لنا منهجا من السماء لم يطبقه أحد أمامنا . . ولذلك فهو لا يصلح للتطبيق . .

إن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن منهجه طُبق . . وأنه أدَّى إلى الصلاح فى الأرض . . وإلى الخير . . وإلى النصر من الله سبحانه وتعالى .

ونظريات الحق طبقت . . وبقيت فى الأرض . . وازدهرت . . وانتصرت . . وحققت الرفعة للانسان المؤمن . . ونظريات الباطل طبقت . . وثبت فسادها فى التطبيق وزالت . . مثلما نراه الآن بالنسبة للنظرية الشيوعية .

النظرية الشيوعية جاءت لِتُوهِمَ الناس انها ستحقق لهم جنة

الله فى أرضه .. وأنها ستعطى الخير للجميع .. وأن الدول الفقيرة التى تعتنق مبادئها تصبح غنية .. والدول الضعيفة .. تصبح قوية .. والثروات تزداد .. والخير للجميع ..

ولكن عندما طبقت النظرية .. ثبت انها لم تحقق للناس إلا البؤس والشقاء !! وأنها جاءت بالفقر وليس الغنى .. وبالضعف وليس القوة .. وبالظلم وليس العدل .

وجاء واقع النظرية يثبت أنها باطل .. وليهدمها .. فلم تعش سوى سنوات قليلة .. ثم انهارت وماتت ودفنت .. ملعونة من الله .. ومن الناس جميعا .. وجاء ذلك مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

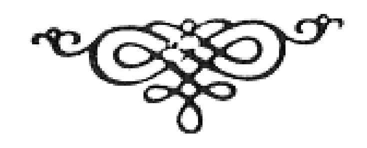
﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وهكذا يعطينا الله مثل الحق والباطل .. فالحق يبقى فى الأرض .. ينتفع به الناس .. والباطل يزول ملعونا من الناس .. ونحن رأينا ذلك فى الأحداث الماضية .. ونراه فى حاضرنا مع الباطل الذى أرادت الشيوعية أن تنشره .. وسيراه فى المستقبل الذين سيعيشون فيه .. كل باطل إلى زوال .

وهكذا يثبت الواقع وأحداث الكون .. أن منهج الله الحق

هو الذى ينتصر دائما . . وأن الباطل عمره قصير . . ومصيره إلى زوال . . ولذلك نرى أنه إذا قامت معركة بين حق وباطل . . فإنها لا تطول . . بل ينتصر الحق على الباطل فى وقت قصير . . ولكن المعارك التى تطول . . هى المعارك بين الباطل والباطل . . ذلك أن الله سبحانه وتعالى ينصر الحق على الباطل . . فإذا كانت المعركة بين باطل وباطل . . تركها الله لأسباب الدنيا فتطول وتستمر . . حسب أسباب كل طرف وعدته واستعداده . .



وعلى أية حال . . فإن التطبيق والواقع . . هو الذى يبين حقيقة النظرية أو زيفها .

فما هو الواقع فى قصة « ذى القرنين » ؟ الواقع فى هذه القصة . . رجل مَكَّنَهُ الله من الأسباب فى الأرض . . أعطاه المُلْكَ وأسباب الدنيا وأسباب القوة . . وهنا نعرف الكهف فى هذه القصة . .

الله تبارك وتعالى . . يريد أن يقول لكل مُمَكَّنٍ فى الأرض . . أنت أخذت وعليك أن تعطى . . إياك أن تكتفى بما أخذت وتسكت . . ولكن يجب أن تفهم . . أن عطاء الله لك لابد أن يقابله عطاء منك . . ويجب أن تفهم . . أن عطاءك للناس يجب أن يكون على قدر ما أعطاه الله لك، فإن أخذت القليل تعطى القليل . . وإن أخذت الكثير ، لابد أن تعطى الكثير . . أنت أصبحت مُمَكَّنًا . . والممكّن هو الذى أعطاه الله الأسباب التى مكنت له فى الأرض . . فعليه أن يتبع هذا بعطاء من عنده . . فينصر الحق . . ويحارب الظلم والطغيان . . ويعمل بتعاليم من هو أحكم منه . . وهو الله سبحانه وتعالى .

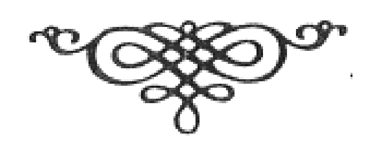
ومادمت أنا أعرف أن الأسباب من الله . . فلابد أن أجعلها تؤدى الغاية التى من أجلها أعطت الأسباب .

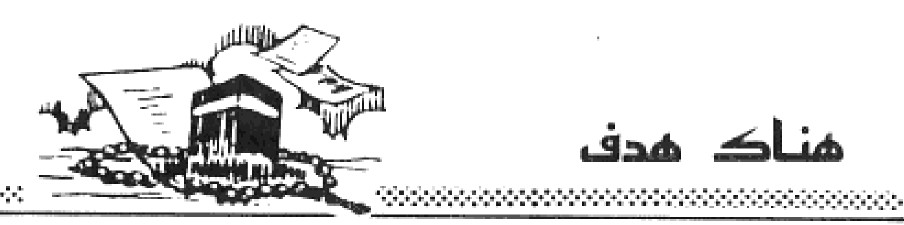
واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

(الآية ٤١ سورة الحج)

وهكذا أعطى الله سبحانه وتعالى لنا فى القرآن الكريم .. الغاية التى يجب أن يعمل من أجلها كل من يمكّن فى الأرض .. ولكل شىء غاية توضع أولا .. الذى صنع الثلاجة مثلا .. قبل أن يصنعها وضع لها الغاية .. وهى أن يريح الناس من الأشياء والأطعمة التى تفسد ويوفرها لهم .. ويعطيهم ماء باردا فى الصيف .. ويحفظ لهم مأكولاتهم .





إذن هناك هدف من وراء صنع الثلاجة . . ثم بعد ذلك قام بصناعتها . . فأوجد الوسيلة التى تؤدى إلى الهدف أو الغاية . . إذن فكل شيء له سبب أو وسيلة . . وقبل أن يكون للشيء سبب . لابد أن تتضح الغاية فى الذهن . . ثم بعد ذلك نبحث عن السبب الموصل لهذه الغاية حتى نحققها . . فإذا كان الذى وضع السبب والغاية . . من هو أحكم منى ومنك . . وهو الله سبحانه وتعالى . . فى هذه الحالة يجب أن نتخذ سبيل الله الذى بينه لنا . . ومادام الله جل جلاله . . يعطى الأسباب للناس . . ليطبقوا منهجه ويصلحوا فى الأرض . . فلابد أن يبين لنا ذلك لا بالنظرية . . ولكن بواقع الأحداث . . لنرى مثالا لرجل مكَّنه الله فى الأرض . . فأدى الغاية التى من أجلها أُعطى الأسباب والتمكين .

هذا الرجل هو ذو القرنين . . فمن هو ذو القرنين ؟ لقد قالوا عنه الكثير . . قالوا انه الاسكندر المقدونى . . وقالوا إنه من الروم . . وقالوا إنه كان قبل عيسى عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة . . وقالوا إنه حكم الصين . . وقالوا إنه عاش مع ابراهيم الخليل عليه السلام . . وطاف معه بالبيت العتيق . . قالوا عنه أشياء كثيرة .

لكنا لن نناقش هذا كله .. لأنه علم لا ينفع .. وجهل لا يضر .. فالقصة فى القرآن الكريم جاءت مبهمة .. لم يبين لنا الله سبحانه وتعالى فيها شخصية ذى القرنين .. ولا زمانه ولا مكانه .. حتى تشيع القصة ـ كما قلنا ـ فى الأزمان كلها والأمكنة كلها .. والأشخاص كلها ..

كل ما يهمنا أن ذا القرنين .. رجل أعطاه الله الأسباب والملك .. فأخذ الأسباب ليحقق منها الأهداف التى من أجلها أُعْطِىَ الْمُلْكَ وأسبابه .. ولذلك فهذه القصة تنطبق على كل من أعطاه الله أسباب المُلْكِ فى الأرض .. وماذا يفعل بها .. الآية الكريمة تقول :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

(الآيات من ٨٣ ـ ٨٥ سورة الكهف)

فى بداية الآية الكريمة يقول الحق سبحانه وتعالى : « ويسألونك » .. معنى هذا أن هناك سائلا ومسئولا .. الذى سُئل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والذين سألوه هم اليهود .. لأنهم أهل كتاب ..

إن قصة ذى القرنين . . مذكورة عندهم فى التوراة . . وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها . . عله يأتى بقصة من عنده . . تُتَّخَذُ وسيلة للطعن فى الإسلام . . فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بقصة ذى القرنين . . ليرد عليهم ويخرصهم . .

يقول الله سبحانه وتعالى « وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا » أى أنه لم يأخذ الأسباب وسكت دون أن يعطى شيئا . . بل عندما أعطاه الله الأسباب . . استخدمها فى الوصول إلى الأهداف التى أعطيت له من أجلها . . والْمُلْكُ فى الأرض عطاء من الله سبحانه وتعالى للبشر . . لا يأتيهم بأسبابهم . . ولكن بأسباب الله . . مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(الآية ٢٦ سورة آل عمران)

وهكذا نرى أن الْمُلْكَ يكون بأسباب الله . . وليس بأسباب البشر . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « وتنزع الملك ممن

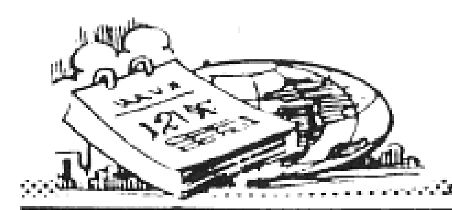
تشاء » . . أى يُنْزَعَ من الناس . . بغير إرادتهم . . ولو كان الملك بأسباب البشر . . لاحتفظوا به وما نُزِعَ منهم . . حتى الكافر يأخذ المُلْكَ بأسباب الله . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وهكذا يخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن ذلك الكافر الذى آتاه الله الملك . . فأخذ أسباب الله فى الملك . . وبدلا من أن يوجهها للاصلاح . . وجهها للكفر والالحاد والتكبر . . وأدعى أنه يحيى ويميت !!

الحق سبحانه وتعالى يعطينا الصورة والمقابل . . فصورة الصلاح والاصلاح أعطاها لنا فى قصة ذى القرنين ، وصورة الفساد والافساد . . أعطاها لنا فى قصة ذلك الكافر الذى غرته أسباب مُلْكِه الدنيوى . . فكفر بالله سبحانه وتعالى .



ذو القرنين أعطاه الله سبحانه وتعالى أسباب الْمُلْكِ . . لقد روى لنا الله تبارك وتعالى ماذا فعل ذو القرنين فى أحداث الزمن مادام مُمَكَّناً . أى مادام أوتى من القوة والقدرة . . ما يستطيع به أن يعدل الميزان . . بين الحق والباطل . . وبين المحسن والمسىء . .

فى كل مجتمع هناك محسن وهناك مسىء . . محسن مستمر فى إحسانه ، ومسىء مستمر فى معصيته وإفساده .

ماذا يفعل الْمُمَكَّن فى الأرض ؟ . . أيقف يراقب ما يحدث دون أن يتدخل ؟ . . أو يقول لا شأن لى لا بهؤلاء ولا بهؤلاء ؟ . . لا . . ليس هذا هو الهدف من أن الله مكّنه فى الأرض . . بل لابد أن يعطى للمحسن طاقة تزيده إحسانا . . وللمسىء عقوبة تناسب جريمته . . حتى يعتدل الميزان فى الكون .

إذن فالمحسن المصلح فى الأرض لا نجعله يقف عند إحسانه . . بل نعطيه الطاقة التى تزيد هذا الاحسان . . بأن نشجعه بالحوافز . . أو نكرمه ونعطى له نيشانا . . المهم أنه يلقى نوعا من التقدير يزيده إحسانا . . أما المسىء فنضرب على يده . . حتى يترك الاساءة . .

وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ .

(الآية ٨٦ سورة الكهف)

إن الله سبحانه وتعالى . . يريد أن يستقيم الميزان فى الحياة . .

بعض الناس يتساءل هنا ألا يوجد حساب فى الآخرة ؟ . . ألا يوجد عذاب أليم لأولئك العاصين المفسدين ؟ . .

ألا يكفى - لاعتدال ميزان الحياة - أن يعرف المسىء أنه سيعذب فى نار جهنم عذابا خالدا مهينا أليما . . حتى يمتنع عن المعصية والسوء والافساد ؟ نقول لا . . لأنه يوجد فى الدنيا الكافرون بالله الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ولا يعتقدون أن هناك يوما للحساب . . وأن مصيرهم إلى النار .

هؤلاء غير المؤمنين بالله وبالآخرة . . أنتركهم هكذا يفسدون فى الأرض ويعبثون فيها ؟ . . لا . . وإنما لابد أن يكون هنا فى الدنيا عقاب قبل عقاب الآخرة . . وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ

﴿ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكۡرًا ﴾

(الآية ۸۷ سورة الكهف)

من هذه الآية الكريمة نعرف .. أن هناك عذابا أولا فى الدنيا .. وعذابا فى الآخرة .. ما فائدة العذاب الأول فى الدنيا ؟ .. فائدته أنه يعدل ميزان الحياة عند من لا يؤمن بالآخرة . فلا نترك الناس تعيث فسادا فى الأرض .. دون أن يحاسبوا .. فالعذاب الدنيوى لابد منه .. حتى يمكن للمجتمعات أن تقوم ، ولذلك نرى أنه حتى الدول الكافرة .. التى لا تؤمن بالآخرة .. لابد أن تأخذ بالعذاب الدنيوى .. كضرورة اجتماعية ..

ان هذه الدول .. رغم عدم إيمانها .. أخذت بمنهج الله فى ضرورة وجود عقوبات دنيوية .. انها لم تأخذ به إيمانا .. ولكن أخذته اضطرارا ورغما عنها .. لأنها وجدت أنه لا يمكن أن تستقيم الحياة .. إلا بعد أن يوجد العذاب الدنيوى أولا .. بالنسبة لمن يفسد فى الأرض .



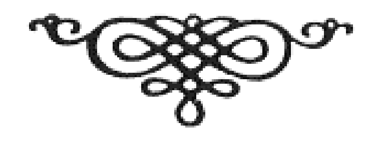
لقد أوجب الله العقوبة الدنيوية على من أفسد قبل أن يقع أى إفساد فى المجتمع .. إن الدول غير المؤمنة لم تأخذ بنظرية العقاب أو العذاب الدنيوى .. إلا بعد أن عانت معاناة شديدة من الفساد فى المجتمع .. بعد أن حدث هذا الفساد وانتشر .. لكن هناك من ظلموا فى الدنيا وأفسدوا .. دون أن يناهم العذاب .. أو دون أن يعاقبوا .. ما حكم هؤلاء ؟.. نقول حسابهم فى الآخرة .. ولذلك من عدل الله سبحانه وتعالى .. أن من يفلت من عقاب الدنيا .. ينتظره عقاب الآخرة .. لنعلم أنه لا أحد يفلت من الحساب أو العقاب .

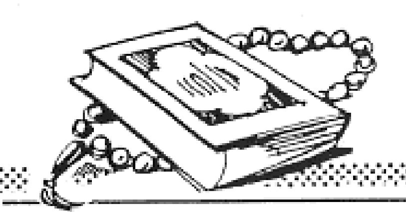
وظيفة المُمَكَّن فى الأرض .. أن يضع العقوبات الدنيوية للمفسد والظالم فى المجتمع .. وأن تكون هذه العقوبة التى يفرضها المُمَكَّن فى الارض متناسبة مع بشريته .. ولكن هذا ليس نهاية الجزاء .. بل إنه بعد ذلك .. يُرَدُّ إلى الله سبحانه وتعالى لينال جزاءه .. لا على قدر قدرات البشر .. ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى .. وليس عذابا موقوتا أى مُحَدَّدَ الوقت .. إما بنهاية العقوبة وإما بنهاية الحياة .. ولكنه عذاب يكون فيه خالدا مخلدا ..

لقد جعل الله سبحانه وتعالى العقوبات الدنيوية لكى تستقيم

الحياة فى الدنيا . . حتى لا يموت المظلوم دون أن يرى القصاص من ظالمه فى الدنيا . لتستقيم الحياة .

اننا لو تركنا المفسدين فى الأرض بلا عذاب دنيوى لانتشر الفساد . . وانتشار الفساد يعانى منه المؤمن وغير المؤمن . . لأن الفساد فى المجتمع لا يعانى منه الكافر وحده . . بل ربما كان الكافر أقل الناس معاناة . . لأنه ينضم إلى موكب الفساد . . ويكون من جنوده . . ويحاول أن يستفيد منه . . أما المؤمن فهو إنسان يعيش بقيم المنهج التى تمنعه من الانضمام لموكب الفساد . . وتمنعه من ظلم الناس . . ولذلك فهو يعانى ـ أكثر من غيره ـ من الفساد فى المجتمع .





أراد الله سبحانه وتعالى .. أن يحمى عباده المؤمنين .. فقال : إن من مهمة من يؤتيه الله الملك ويعطيه الأسباب أن يضرب على يد المفسد .. وبذلك يحمى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين من شر انتشار الفساد فى الأرض فى حياتهم الدنيا .. وجعل مهمة من يؤتيه الله الملك أن يفعل ذلك .. فإن لم يفعل وانضم إلى المفسدين ونشر الظلم والفساد فى الأرض .. سلط الله سبحانه وتعالى عليه من هو أظلم منه لينتقم منه .. حتى يتم العقاب الدنيوى .. وليرى الناس أن الظلم لا يمكن أن يؤدى إلا إلى هلاك أهله .. وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

إن الله سبحانه وتعالى قد يؤجل الحساب إلى الآخرة فى معاص كثيرة .. إلا ظلم الناس .. فإنه لابد أن يعجل بعذابه فى الدنيا .. حتى يستقيم ميزان الحياة .. ويعرف الناس نهاية الظالم .. ويكون فى ذلك عبرة .. وعندما يحين وقت القصاص من الظالم . حينما تأتى نهايته .. فإنها لا تكون على يد مؤمن .. لأن المؤمن فى قلبه رحمة .. وهو بطبعه ميال للخير .. ميال

للعفو .. ولكن نهايته تكون على يد من هو أظلم منه .. ليكون الانتقام بشعا .. وتكون العبرة مؤثرة .

وبعد أن حدَّدَ الله سبحانه وتعالى مهمة من أتاه الملك .. بالنسبة للظالمين والمفسدين فى الأرض قال : إن هذا العذاب الدنيوى ليس نهاية العذاب بالنسبة للظالم .. بل هناك عذاب ينتظره فى الآخرة .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

(الآية ٨٧ سورة الكهف)

أما بالنسبة للمحسنين المصلحين فى الأرض .. فيقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

(الآية ٨٨ سورة الكهف)

إذن فلابد أن يكون هناك جزاء دنيوى حسن لمن يحسن ويصلح .. على الأقل نقول له أحسنت ، أو أكثر الله من أمثالك .. أو نجزيه بالحوافز ، حتى نشجع من لا يفعل على أن يفعل .

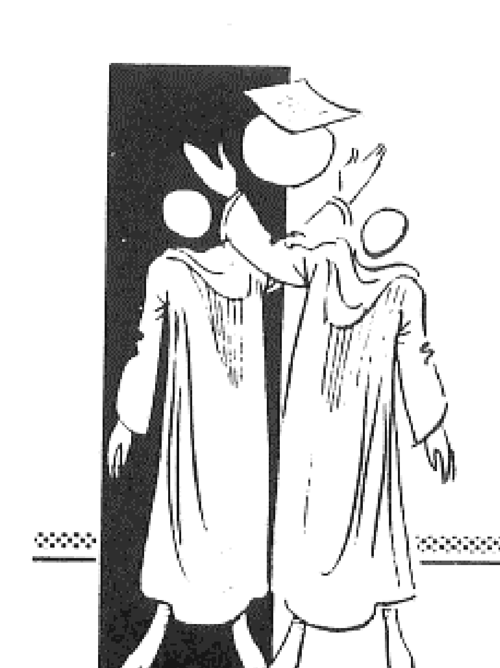
إن هذا أيضا موجود فى المجتمعات المؤمنة وغير المؤمنة ..

لأنه واقع لابد أن يكون . . أن نعطى المحسن جزاء إحسانه . . إن عدم تطبيق هذه القاعدة يؤدى الى اختلال ميزان الثواب والعقاب على من أحسن أو على من أساء..هو الذى يضيع كل شىء . . فبدلا من أن نعطى المحسن . . نعطى المنافق والمرائى . . والذى يغضب الله ليرضيك . . والذى يزيف أو يزور من أجلك . . لقد أخذ الانسان مبدأ وضعه الله سبحانه وتعالى بالاحسان إلى المحسن . . فأفسده بسوء تطبيقه .

إن قصة ذى القرنين تلفتنا إلى أنه من مهام الحاكم المُمَكن فى الأرض أن يضرب على يد المسىء . . ويثيب المحسن . . وأنه إذا لم يفعل ذلك . . يكون قد خان أمانة الحكم . . وهو ما يؤدى الى فساد المجتمع ، وإلى معاناة الناس أشد المعاناة .

على أن هناك كهفا آخر لذى القرنين . . فى قصة يأجوج ومأجوج . . نتابعه فى الفصل التالى إن شاء الله .

الفصل الخامس



الكهف الخامس
يأجوج ومأجوج

ذو القرنين ــ وهو رجل أعطى المُلْك
والحكم ــ لم يجعله الله سبحانه وتعالى يستقر
فى مكان واحد . . بل جعله ينتقل من مكان
الى مكان . . لماذا ؟ . . لأن الداءات
تختلف . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يبين
لنا مهمة الملك أو الحاكم فى علاج الداءات المختلفة . . ولذلك
نقله سبحانه من مكان الى مكان . ليعطينا صورة لداءات مختلفة
توجد فى المجتمعات . . وكيف تتم معالجتها بالطريقة
السليمة . . بحيث لا تعود أبدا . . ولذلك يقول الحق تبارك
وتعالى :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

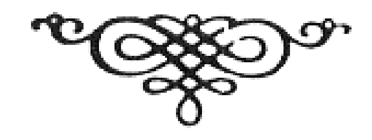
(من الآية ٨٢ سورة الاسراء)

ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال : «شفاء» ـ تكون المهمة
الأولى لمنهج الله . . هى شفاء الأمراض التى تتعب المجتمع . .
وبعد أن يتم الشفاء وتتطهر المجتمعات من هذه الأمراض . .
يأتى المنهج للرحمة . . بحيث لا تعود هذه الأمراض الى
المجتمعات الايمانية أبدا .

لقد أرسل الله الرسل . . لتعالج بمنهج الله الأمراض التى
تفسد المجتمعات البشرية أولا ، ثم وضع منهج الحياة الذى
لايجعل مثل هذه الأمراض تعود لتفتك بالبشرية من جديد .

ولقد بينا كيف أن المهمة الأولى للحاكم .. هى أن يعدل الميزان فى المجتمع الدنيوى .. ونحن نرى أن هذا المبدأ الالهى أمر حتمى لابد أن يأخذ به الناس .. حتى فى المجتمعات التى لاتؤمن بدين ولا بجزاء .. وأن من لم يصل اليه العقاب على جريمته فى الدنيا .. فإنه ينتظره عذاب أليم شديد فى الآخرة .

إن من واجب الحاكم .. أن ينصر المظلوم على الظالم . والضعيف على القوى .. ولكن كيف ينصر الضعيف على القوى ؟ .. بأن لايبقيه ضعيفا .. بل يعطيه ما يمكنه من أن يزيل ضعفه . أى لا يعطيه لقمة يأكلها .. وإنما يعطيه شيئا يفعله ليأكل من ناتج عمله .. وهذه هى العبرة .. أو الكهف الموجود فى قصة يأجوج ومأجوج .



لكن قبل أن نبدأ هذه القصة . . ونتحدث عن يأجوج ومأجوج . من هم ؟ وما هو المقصود من قصتهم ؟ لابد أن نلتفت الى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرًا ﴾

(الآية ٩٠ سورة الكهف)

وهنا لابد ان نتساءل . . ما الذى يستر الشمس ؟ . . أيسترها ظل شجر ؟ أو سقف بيت ؟ . . نقول لا . . لأن أشعة الشمس تنفذ من بين أوراق الشجر . . وتنفذ من أشعتها ـ بعض مكونات هذه الأشعة ـ من السقوف والجدران . . وحتى فى البدرومات والأماكن الموجودة تحت الأرض . . تجد ظلمتها تختلف فى النهار عن الليل . . ففى النهار تخف الظلمة من تأثير أشعة الشمس .

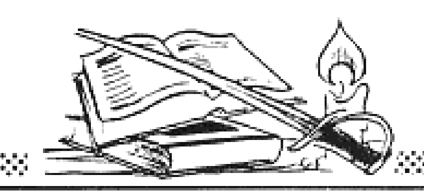
إن كل الأشياء التى قد نستظل بها فى الدنيا . . تنفذ منها أشعة الشمس . . أحيانا مرئية . . وأحيانا غير مرئية . . ولكن الذى يستر الشمس سترا تاما ولايجعل لأشعتها المرئية . أو غير المرئية وجود . . هو الظلام . . ففى الظلام لا يكون لأشعة

الشمس وجود تماما . . بل تكون مستورة ستراً تاماً عنا . . وهذه الآية الكريمة تقول : «وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً» .

فكأنه ليس هناك ليل أو ظلام فى هذه الأماكن . . وهذا إعجاز من القرآن الكريم . . يدلنا على أن ذا القرنين . . قد وصل الى القطب الذى تكون فيه الشمس ستة شهور لاتغيب ، وطوال هذه الشهور لايوجد ظلام يستر الشمس فى هذه الأماكن . .

لقد أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نعلم أن هناك أماكن فى الأرض . . لاترى ظلاما لفترات طويلة . . والشمس تشرق وتغرب كل يوم على معظم الكرة الأرضية .

ولكن هناك أماكن لاتشرق عنها الشمس كل يوم ولاتغيب . . وعندما تقدمنا وكشف الله لنا من علمه ما شاء . . عرفنا أن هناك أماكن فى الأرض . . لاتغيب عنها الشمس . وليس فيها ظلام . . يستر الشمس عن الناس شهورا طويلة . . فكما خلق الله سبحانه وتعالى . . ليلاً ونهاراً فى كل يوم . . خلق أماكن ليس فيها ليل ونهار كل يوم . ولكن فيها نهار لستة شهور . وليل لستة شهور . . وهذا من إعجاز القرآن الكريم .



الله سبحانه وتعالى جعل ذا القرنين يسيح فى الأرض . . ليبين لنا حكم الله فى الأمراض المختلفة التى تصيب المجتمعات . وفى هذا يروى لنا القرآن الكريم قصة يأجوج ومأجوج . .

إن الناس تلح فى السؤال عمن هم يأجوج ومأجوج ؟ كما ألحت فى السؤال قبل ذلك عمن هو ذو القرنين ؟ هل هو قورش الفارسى . . أو الاسكندر المقدونى ؟ أم حاكم من حكام اليمن ؟

نقول إن هذا لا يعنينا . . إنما الذى يعنينا أنه مُمَكَّن فى الأرض . . وأنه ساح فى الأرض شرقاً وغرباً . . ولا يعنينا من هم يأجوج ومأجوج . . وإنما هذا الوصف ينطبق على المفسدين فى الأرض فى كل زمان ومكان . . أما الذين عانوا منهم . . فهم كل مظلوم غير قادر على حماية نفسه . . والله سبحانه وتعالى يريدنا من قصة ذى القرنين أن نعرف ما هى مهمة الممكَّن فى الأرض أو الملك أو الحاكم .

حماية الضعيف ليست كافية

نقول أن مهمته أن يقف بجانب الضعيف ، ليس فقط موقف الحماية . . بل لابد أن يعطيه من أسباب القوة ما يجعله يستطيع أن يدافع عن نفسه أمام ذلك القوى الظالم . . ولذلك لابد أن نتبين أولا من أين يأتى الشر ؟ لنعين الضعيف على أن يقى نفسه منه . .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾

(الآية ٩٣ سورة الكهف)

أى أن ذا القرنين . . وجد قوما ضعفاء . . لايستطيعون حماية أنفسهم . . ولا يملكون من العلم ولا من أسباب الكون ما يمكنهم من حماية أنفسهم . هؤلاء القوم وجدوا فى ذى القرنين العدل والقوة والعلم ما جعلهم يستنجدون به . . ليحميهم من قوم ظالمين مفسدين فى الأرض . . يغيرون عليهم ويقتلونهم ويأخذون خيراتهم ، فاستنجدوا به . . كما يروى لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾

(الآية ٩٤ سورة الكهف)

هؤلاء القوم المستضعفون استنجدوا بذى القرنين وقالوا له : إنهم مستعدون لأن يدفعوا له الجزية . . أو مبلغا من المال كل عام مقابل أن يحميهم من فساد يأجوج ومأجوج . . الذين كانوا يأتون اليهم من ممر بين جبلين . ولكن ذا القرنين الذى مكنه الله فى الأرض . . وأعطاه من أسباب القوة . . لم يكن محتاجا لمالهم . . فيكفيه ما أعطاه الله . وهو لايريد طمع الدنيا الزائل . . ولذلك قال لهم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٩٥ سورة الكهف)

أى ما انتظره من جزاء ربى على الخير الذى أقوم به فى الدنيا خير من كل مال الأرض . . فلا يغرينى مالكم الذى تعرضونه . .

ثم بدأ مهمته ليقى هؤلاء المستضعفين ويحميهم من أولئك المفسدين فى الأرض . . أول شىء بحث عنه . من أين يأتى الشر ؟ . . وعندما عرف أنه يأتيهم من ممر بين الجبلين . . قرر أن يقيم لهم سدا يمنع عنهم هؤلاء المفسدين فى الأرض .

هذا السد كان لابد أن يكون له مقومات :

أولا أن يكون سميك الجدار . فلا يستطيع يأجوج ومأجوج .. أن يحدثوا فيه ثقبا ينفذون منه .. ولذلك فلابد لهذا السد . أن يكون قوى البنيان سميكا .. فوق قدرات وأسباب يأجوج ومأجوج .

وثانيا أن يكون هذا السد عاليا .. بحيث لا يستطيعون أن يتسلقوه وينزلوا من فوقه .

إذن المراد سد متين لاينفذ منه أحد .. عال لا يستطيع أحد ان يتسلقه .. هذا هو السد الذى لابد أن يقام بين الظالم والمظلوم .

وكان ذو القرنين يستطيع أن يبقى حتى يبدأ يأجوج ومأجوج هجومهم .. ثم يهاجمهم ويهزمهم .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه ليس من وظيفة الحاكم أو الملك .. أن يظل فى انتظار هجوم الظالم .. ولكن وظيفته منع وقوع الظلم .

كيف يمنع ذو القرنين وقوع الظلم ؟ أيأتى بجيش يحمى هؤلاء الناس حتى يظلوا طوال حياتهم محتاجين للحماية ؟

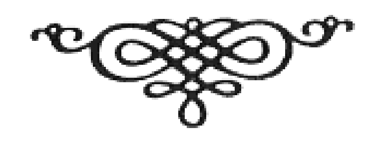
لا . وإنما يطلب منهم أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم ..

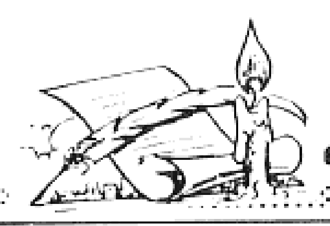
لذلك قال كما أخبرنا القرآن الكريم :

﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

(من الآية ٩٥ سورة الكهف)

أى أنه أراد من هؤلاء الضعفاء .. أن يتعلموا كيف يحمون أنفسهم .. فعلمهم بناء السد بخبرته وعلمه .. حتى يعرفوا ويتدربوا على ذلك .. فإذا أصاب السد شيئا استطاعوا أن يصلحوه ..وفى نفس الوقت جعلهم يبنون السد بأيديهم .. حتى يكون من عملهم فيحافظوا عليه .





لم يرد أن يجعل منهم عاطلين . . يوفر لهم هو الطعام والشراب والحماية . . بل جعلهم هم الذين يعملون لأنفسهم .

وهذه تلفتنا الى أن لله سبحانه وتعالى ، عطاء امكانيات ، وعطاء ذاتى فى النفس . . عطاء الامكانيات هو ما تستطيع أن توفره من وسائل تعينك على أداء العمل، والعطاء الذاتى فى النفس . . هو القوة الذاتية فى داخلك التى تعطيك طاقة العمل .

وكثير منا لايلتفت الى عطاء النفس . . لايلتفت الى أن فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالاً كثيرة . . وأنه لايستخدمها وأن لديه قوة تحمل . . وبإمكانه أن ينتقل من مكان الى آخر . . وأن يعمل أعمالاً كثيرة . .

هذه القوة معطلة عند عدد كبير من الناس . فهى غير مستخدمة . . ويستطيع الرجل أن يفعل بها أشياء كثيرة وأمامه المجالات التى يستخدم فيها طاقته . . ولكنه لا يستخدمها عنده قوة تفكير لو دربها على العمل . . لفتحت له أبوابا كثيرة يرتزق منها . . ولكنه يبقيها كسولة . . فلا يفكر فى شىء . . ولا يستخدمها لينميها .

ماذا فعل ذو القرنين ؟

القرآن الكريم يروى لنا ذلك فى قوله تعالى :

﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾

(الآية ٩٦ سورة الكهف)

وهكذا نرى أن ذا القرنين . . لم يستعن بجيشه ، ولا بأناس آخرين . . إنما استعان بهؤلاء الضعفاء ، لقد طلب منهم أن يأتوا بالحديد . . ثم بنى السد بحيث وصل به الى قمة الجبلين . . ثم قام بصهر الحديد . . وأفرغ عليه النحاس ليكون السد فى غاية المتانة والقوة .

إذن فهو قوى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج . . بأن علمهم كيف يعينون أنفسهم . . وكيف يبنون السد . وجعلهم هم الذين يشتركون فى البناء . . وهم الذين يقيمونه . . وأعانهم هو بخبرته وعلمه فقط . . ليأخذوا الثقة فى أنفسهم . . بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم . . وليتعلموا ما يعينهم ويحميهم .

والاسلام ينهانا عن أن نُعوِّد الناس على الكسل . . أو نعطيهم أجرا بلا عمل . . لأن ذلك هو الذى يفسد المجتمع . . فالانسان متى تقاضى أجرا بلا عمل . . لا يمكن أن يعمل بعد ذلك أبدا . . ولذلك قيل أنه اذا لم يوجد من الأعمال

فى مجتمع ما ، ما يشغل كل العاملين فيه . . فلنأمرهم أن يحفروا الأرض ثم نأمرهم أن يردموها . . حتى لا يتقاضوا الأجر بدون عمل .

ذو القرنين قام بمهمة الحاكم الممكُن فى الأرض . . بأن يُقوى شعبه . ويجعله قادرا على حماية نفسه من العدوان . . ولا يعتمد على حماية أحد . لقد بينت لنا قصة ذى القرنين . مهمة الحاكم الممكّن فى الأرض . . وهى أنه أولا يضرب على يد الظالم . . ويكافىء المحسن . . والضرب على يد المفسد بعقاب دنيوى . . مسألة هامة جدا ولاغناء عنها حتى لايستشرى الفساد فى المجتمع . . وحتى لايعانى الناس . . كل الناس من الظلم . . فأساس صلاح المجتمع الدنيوى . . الضرب على يد المفسد أو الظالم . . وأساس فساد المجتمع الدنيوى . . أن يترك الظالم بلا عقاب فى الدنيا . . ثم تأتى الآخرة ويكون الحساب للجميع .

والمهمة الثانية للحاكم الممكن فى الأرض . . هى ألا يعمل ويترك الناس فى مقاعد المتفرجين . . بل لابد أن يُعَود الجميع على العمل . . وأن يعلمهم ليستطيعوا هم أن يعملوا ويبنوا . . ويتحولوا من مجتمع الضعف الى مجتمع القوة . . المجتمع الذى يعتمد على نفسه وعلى سواعد أبنائه .

إن القرآن الكريم يعلمنا أن كل عمل يعمله الانسان لابد أن يكون مؤديا للغرض الذى أقيم من أجله . .

فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾

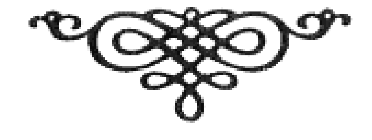
(الآية ٩٧ سورة الكهف)

هذا السد الذى تم بناؤه بين يأجوج ومأجوج والقوم المستضعفين . . لابد أن يحقق هدفين . . الهدف الأول : أن يكون من المتانة والقوة . . بحيث لا يستطيعون أن يحدثوا فيه ثقبا يمكن أن ينفذوا منه . . والهدف الثانى هو أنهم لا يستطيعون أن يتسلقوه وينزلوا من فوقه . . وقد حقق هذا السد الهدفين .

كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا . الى أن نتقن أعمالنا فى الدنيا . . حتى تحقق الهدف المطلوب منها . . فكل عمل له هدف . . مثلا الكرسى على اطلاقه بجميع أنواعه له هدف . . هو أن يجلس الناس عليه . ولذلك عند صناعته نلتفت الى شيئين . . أن يكون قويا متينا بحيث لا يتحطم تحت ثقل الجالس فوقه . . وأن يكون مريحا للشخص الذى يجلس عليه . . وبذلك نكون قد حققنا الهدف من صناعة الكرسى . . وأتقنا هذا الهدف . . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) .

كذلك كل شىء تصنعه فى الدنيا . كالبناء لابد أن يكون جيدا فلا يسقط على سكانه . مفتوحا للشمس والهواء . . متقن الخدمات ، بحيث لاتكون سلوك الكهرباء مثلا تحدث ماسا . . ولا مواسير المياه تسرب المياه وغير ذلك . . فإذا بنينا كوبرى

مثلا . . فلابد أن نخطط بأنه يحل مشكلة المرور التى بُنِيَ من أجلها . . وأن يكون قويا متينا يتحمل ثقل السيارات التى تمر عليه . . كما علمنا القرآن الكريم فى بناء سد يأجوج مأجوج .





على أن هناك حقيقة .. يلفتنا لها القرآن الكريم .. فى إشاعة قصصه فى كل زمان ومكان بإبهام أشخاصها وزمنها ومكانها .. فإذا قرأنا الأمثلة التى ضربها الله لنا فى القرآن الكريم . نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(الآية ١٠ سورة التحريم)

وفى هذا المثل .. يروى لنا الحق سبحانه وتعالى قصة زوجتى نبيين كريمين .. وهما امرأتى نوح ولوط .. لم تؤمنا وأصرتا على الكفر .. فلم يشفع لهما أنهما زوجتى نبيين . بل دخلا النار .. الله سبحانه وتعالى لم يقل لنا .. من هما امرأتا نوح ولوط .. وإنما قال إنهما كانتا زوجتين لرسولين كريمين .

إبهام شخصيتهما هنا .. الهدف منه أن نعرف الحكمة التى هى باقية فى كل زمان ومكان . وهو أنه ليس للمرأة تبعية لزوجها فى العقيدة .. فالزوجان رسولان كريمان .. ومع ذلك لم

يستطيعا أن يجعلا زوجتيهما تؤمنان .

وهذه هى العبرة التى يريدنا الحق سبحانه وتعالى أن نعرفها من القصة . . وهى أن المرأة لها ذاتية عقائدية لايستطيع زوجها ـ ولو كان رسولا ـ أن يؤثر فيها . . ولا حتى بأن يجعلها تؤمن . . وذلك حتى يكون الحساب عدلا . . فى أن لكل انسان ـ رجلاً أو امرأة ـ حرية العقيدة ، ولو كانت المرأة فى عقيدتها تابعة لزوجها . . لحوسب الرجال ولم تحاسبْ النساء . . ولكن الله أعطاها حرية العقيدة لأنها ستحاسب فى الآخرة . .

وضرب الله تبارك وتعالى مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون . فقال جل جلاله :

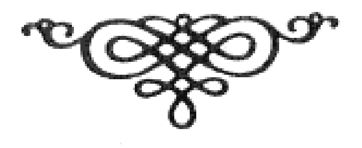
﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(الآية ١١ سورة التحريم)

ولم يقل الله سبحانه وتعالى . من هى امرأة فرعون . . ولا ما اسمها . . ولا كانت زوجة لأى فرعون من الفراعنة . . لأن الله سبحانه وتعالى . . يريدنا أن نعرف من القصة أنها زوجة جبار طاغية . . مُدَّع للألوهية . . ومع ذلك لم يستطع أن يجعل زوجته تتبعه وتكفر بالله . فلا الرسول استطاع أن يهدى .

ولا مدعى الألوهية استطاع أن يفرض الكفر ..

من هذا نعلم ان الحق تبارك وتعالى يريد منا ـ كما قلت ـ أن نعلم أن المرأة لها ذاتية مستقلة فى العقيدة .. ولتبقى هذه الحكمة على مر الزمن .. لم يرد إسم زوجة نوح ـ أو زوجة لوط .. أو زوجة فرعون .



على أننا نلاحظ . . أنه عندما ذكر الحق سبحانه وتعالى مريم عرفها لنا . . فقال جل جلاله .

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾

(الآية ١٢ سورة التحريم)

وهنا نتساءل لماذا لم يذكر الله سبحانه وتعالى اسم آسيا امرأة فرعون . . ولا امرأة نوح . ولا امرأة لوط . وذكر لنا مريم ابنة عمران ؟

نقول ان الحق سبحانه وتعالى . . حينما يكون القصص لعبرة أعلى من أن تطبق وخصوصية ليست فى قدرة البشر ، ولكنها من خصوصيات الله . فإنه يذكر لنا الشخص الذى يريد أن يضرب به المثل . . لأن مريم إبنة عمران ليست أسوة أخلاقية تتكرر عبر الزمن . وليست امرأة سلوكية تحدث فى كل زمان ومكان . . ولكنها خصوصية لن تتكرر . . لأنها معجزة . . ولايوجد بشر مطالب بالمعجزه . . لأنها من قدرة الله سبحانه وتعالى وحده . . ولاتوجد امرأة ستتكرر معها المعجزة . . لأن هذه المعجزة خاصة

بمريم عليها السلام . . ولن تتكرر لأمرأة أخرى . . ولذلك حددها الله سبحانه وتعالى لنا وبينها .

ونفس الشيء ينطبق على عيسى ابن مريم عليه السلام . . فعيسى الذى هو من أنثى بلا ذكر لن تتكرر معجزته مرة أخرى الى يوم القيامة . . ولذلك ذكر فى القرآن الكريم منسوبا الى أمه : (عيسى ابن مريم) فتحديد الشخصية فى القرآن الكريم بما يبينها معناه أنها تتصل بمعجزة لن تكرر .

وهناك كهف آخر فى هذه السورة . . مازال أمامنا . . ختمت به السورة الكريمة . . وهذا الكهف يحدد لنا مصير أولئك الذين تعتبرهم البشرية من المصلحين . . أو من الذين عملوا صالحا للانسانية . . وأدوا لها خدمات أفادت الناس . . ولكن هؤلاء عاشوا كافرين . . وماتوا كافرين . . لم يؤمنوا بالله سبحانه وتعالى فى حياتهم . . ولا قبل موتهم .

هل هؤلاء الناس يعذبون فى النار ؟ أم أن أعمالهم فى خدمة الانسانية تشفع لهم فيدخلوا الجنة ؟

هذا ما سنتحدث عنه ـ بعون الله ـ فى الفصل التالى .

الفصل السادس



الكهف السادس . الذين عملوا للدنيا

أساس الجزاء فى الآخرة . . هو الايمان بالله سبحانه وتعالى . فالله جل جلاله . . لم يكلف أحدا بعمل إيمانى . . إلا من آمن به . . فهو رب الناس جميعا . . ولكنه إله الذين آمنوا . . وعطاء الربوبية فى الدنيا لخلق الله كلهم . . والله سبحانه وتعالى . . هو الذى أوجد هذا الخلق . . واستدعاه الى الوجود . . ولذلك فقد كفل له أسباب وجوده .

إن عطاءات الله المادية فى كونه يشترك فيها جميع خلقه . . المؤمن منهم والكافر . . فالشمس تعطى أشعتها للجميع . . تعطيها لمن قال لا إله إلا الله . . ومن كفر بالله والعياذ بالله . والأرض تعطى ثمارها للمؤمن والكافر . . فلا تعصى وتمنع الثمر عمن لم يؤمن بالله . وإن كانت تعطيه وتلعنه . . والهواء يتنفسه من يعبد الله . . ومن يعبد الحجارة . . ومن يعبد الشيطان . . اعطى هذا . . واعطى ذاك . . دون تفرقة .

تلك عطاءات الربوبية . ولكن عطاءات الألوهية تختلف تماما . . فهى عطاءات فى القيم الروحية . . وبركات تتنزل على الذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، وجنة ونعيم فى الآخرة . ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى . . لم يكلف كافرا . . ولا كلف البشر على اطلاقه . . ولكنه كلف المؤمنين به فقط .

ان كل تكليف فى القرآن الكريم . . يسبقه قول الحق تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .

فيقول جل جلاله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾

(من الآية ٦ سورة المائدة)

وقوله سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(الآية ١٨٣ سورة البقرة)

وفى كل التكليفات . . الموجودة فى القران الكريم . . من صلاة وصيام . . وصدقة وغير ذلك . . لا يكلف الله سبحانه وتعالى به إلا من آمن به إلها . . لأن الله جل جلاله . . احترم حرية الاختيار التى أعطاها للبشر ، ولذلك فإنه لا يكلف الذين كفروا بشىء . . ولكن من يدخل فى الايمان هو الذى يقع عليه التكليف .

هذا التكليف هو عمل إيمانى أمر به الله سبحانه وتعالى . . وطلب من عباده أن يفعلوا . . ولذلك فهم يفعلون حبا لله وطاعة له ورغبة فى الثواب منه . . أى أن هذا العمل الايمانى . .

يقصدون به وجه الله سبحانه وتعالى . وينتظرون الجزاء عليه من الله جل جلاله .

إذن فالله لا يجزى إلا على العمل الذى قُصد به وجهه ، أما غير ذلك من الأعمال . . التى يُقصد بها مجد دنيوى . . أو سمعة أو شهرة أو غير ذلك . . فلا جزاء لها عند الله . والله سبحانه وتعالى يقول فى حديث قدسى :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك » .

ما معنى هذا الحديث ؟ . .

معناه أن ذلك الذى أراد بعمله شيئا آخر غير مرضاة الله . . لا يقبل منه هذا العمل . حتى فى الطاعات . . فالطاعات لا تقبل إلا إذا كانت لوجه الله وحده . فمثلا إذا كانت هناك جمعية خيرية ترعى الأيتام . . وترأس هذه الجمعية زوجة رجل يتولى منصبا هاما . . وجاء من يريد خدمة دنيوية من زوج هذه السيدة . . فتبرع للجمعية بمبلغ عشرة آلاف جنيه مقابل أن يوقع له زوج رئيسة الجمعية على إذن استيراد . . أو ينهى له مشكلة ضرائب . . أو غير ذلك من المصالح الدنيوية !! أيكون تبرعه هذا مقبولا عند الله سبحانه وتعالى ؟ . . طبعا لا . . لأنه لم يقصد به وجه الله . ولكن قصد به قضاء مصلحة دنيوية .

كذلك أيضا من يذهب الى المسجد ليصلى مع فلان . .

وفلان هذا من أصحاب النفوذ . . وفى يده قضاء مصلحة له . . ولذلك فهو يحرص ألا يذهب الى المسجد إلا إذا كان فلان هذا موجودا فيه . ويظل يلازمه حتى يقضى مصلحته . . هل تكون صلاته مقبوله؟ طبعا لا . . لأنه قصد بها غرضا دنيويا .

وهكذا كل الأعمال التى يقصد بها أغراض دنيوية . . ليس لها ثواب عند الله . . لأن الله سبحانه وتعالى لا يتقبل إلا ما كان خالصا لوجهه .

إن الأعمال التى يقصد بها النفاق . . أو الرياء . . أو السمعة أو التظاهر لا جزاء لها عند الله . . فمن بنى مسجدا مثلا . . ووضع عليه لافتة كبيرة باسمه . . ليشتهر بين الناس بالصلاح . . لا أجر له . . والذى حارب وقاتل ليقال عنه شجاع . . لا أجر له ، ولو كان يحارب فى صفوف المؤمنين . . وكل من أراد السمعة بعمله دون الرغبة الحقيقية فى التقرب من الله . فعمله غير مقبول عند الله . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى عن يوم القيامة :

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾

(الآية ٩ سورة الطارق)

أى يوم تنكشف الأسرار كلها . . ويخرج ما فى الصدور . . ليصبح معلناً معروفاً أمام الناس . . بعد أن كان سراً محفوظاً فى القلب . ويظهر بوضوح ما قصده كل إنسان بعمله . . وهل

كان يبتغي وجه الله . أم كان يبتغي به غرضاً دنيوياً يريد أن يحقق به مصلحة لنفسه .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى . فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته الى ما أراد» .

مغزى هذا الحديث الشريف . . أن رجلين خرجا مهاجرين الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . . إذا رأيتهما ظاهراً لا ترى بينهما فرقا . . ولكن هذا مهاجر لله . وهذا مهاجر لغرض دنيوى . . أو أمرأة يتزوجها . . فهل يتساويان فى الجزاء . . أم يجزى كل منهما حسب نيته ؟

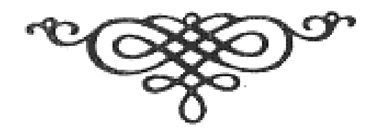
يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل الى العباد ليقضى بينهم . . وكل أمة جاثية . فأول من يؤتى به رجل جمع القرآن . . ورجل قتل فى سبيل الله . ورجل كثير المال . . فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك بما أنزلت على رسولى ؟ فقال بلى يارب . . قال فماذا عملت فيما علمت ؟ قال كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار . فيقول الله : كذبت . وتقول الملائكة كذبت . ويقول الله له : بل اردت أن يقال فلان قارىء وقد قيل ذلك .

ويؤتى بصاحب المال . . فيقول الله : ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج الى أحد ؟ قال بلى يارب . . قال : فماذا عملت فيما آتيتك . . قال كنت أصل الرحم وأتصدق . فيقول الله له : كذبت . . وتقول الملائكة كذبت . . ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جواد . . فقد قيل ذلك .

ثم يؤتى بالذى قُتِلَ فى سبيل الله . . فيقول الله : فبماذا قُتِلْتَ ؟ . . فيقول أُمِرْتُ بالجهاد فى سبيل الله فقاتلت حتى قُتِلْتُ . . فيقول الله كذبت . . وتقول الملائكة كذبت . . ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جرىء فقد قيل ذلك .

ثم ضرب صلى الله عليه وسلم على ركبتى . . فقال يا أبا هريرة : أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة» .



أخسر الناس أعمالا



نأتى بعد ذلك الى الكهف السادس كما يحدثنا عنه القرآن الكريم فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾

(الآيتان ١٠٣ ـ ١٠٤ سورة الكهف)

من هؤلاء الذين . . وصفهم الله سبحانه وتعالى . . بأنهم أخسر الناس أعمالا ، بينما هم يحسبون أنهم يفعلون الخير . . وإن كانوا فى الحقيقة قد ضلوا الطريق . . من هم هؤلاء الناس ؟

الله سبحانه وتعالى يدلنا عليهم . . فى قوله جل جلاله .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾

(الآيتان ١٠٥ و١٠٦ سورة الكهف)

وهكذا نعرف من هذه الآيات الكريمة . . أن كل من عمل عملا ولم يقصد به وجه الله . . ولم يكن الله فى باله . . فلا أجر له .

الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم لا يذكر العمل الصالح وحده . . ولكنه يذكر معه الايمان . . مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة النساء)

إن الحق جل جلاله يريد أن يلفتنا الى أن شرط قبول العمل الصالح هو الايمان . . وإذا أردنا أن نضرب مثلا يقرب ذلك الى الأذهان فاننا نقول . . إنك لا تأخذ أجرك . . إلا ممن عملت من أجله . . فلا يعقل أن تعمل عملاً لإنسان ثم تأخذ أجرك من آخر . . فلماذا يريد الذين لا يعملون لوجه الله أن يتقاضوا أجرهم من الله يوم القيامة ؟! طبعا إن هذا لا يتفق مع طبيعة الكون .

هناك من علموا أعمالا جليلة . . من أجل الانسانية . . أو من أجل الشهرة . . أو من أجل المال . . هؤلاء يأبى عدل الله سبحانه وتعالى إلا أن يكرمهم ممن عملوا من أجلهم ، فتكرمهم الانسانية بإطلاق أسمائهم على المدن والميادين . وتقام

التماثيل تخليدا لذكراهم .. ويمنحون الأوسمة ، وتخصص الجوائز بأسمائهم ويبقى ذكرهم فى الدنيا التى عملوا من أجلها .. فجزاؤهم من جنس ما عملوا له . ولكن شرط الله للجزاء فى الآخرة .. هو أن يكون الانسان قد عمل إيمانا بالله .. وحبا فى الله . وتقربا الى الله .

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى .. صورة هؤلاء الناس فى الآخرة .. حينما يفاجأون بوجود إله كفروا به .. وأنكروا وجوده .. وعملوا لكل شيء إلا له سبحانه وتعالى .. ثم تأتى ساعة الحساب .. يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

(الآية ٣٩ سورة النور)

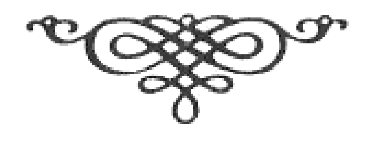
وهكذا يفاجأ يوم القيامة كل من لم يكن يؤمن بالله . وكل من لم يعمل من أجل الله ، إن الله سبحانه وتعالى .. هو الذى سيوفيه حسابه .. وتكون المفاجأة له أنه لم يعمل شيئا من أجل الله . ولذلك فلا حسنة له .

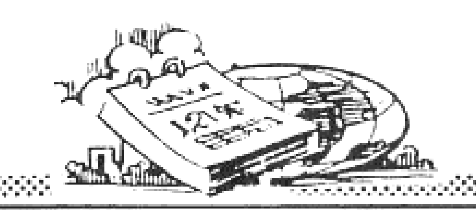
بعض الناس يتساءل : إن هؤلاء الذين قدموا خدمات للانسانية قد عملوا أعمالا معتقدين أنها حسنة .. فلماذا لا يجازيهم الله ؟

نقول لأنهم جعلوا أنفسهم الحكام الذين يحكمون بأن هذا العمل حسن . وهذا العمل قبيح ، مع أن هذا الحكم هو لمن أعلى منهم . . وهو الله سبحانه وتعالى . . الله وحده هو الذى يعلم . وهو الذى يقول ما هو الحسن . وما هو القبيح .

الله سبحانه وتعالى . يعطينا فى جزئيات الحياة ما يؤكد ذلك . . مثلا الذين اكتشفوا المبيدات الحشرية . عندما اكتشفوها هللت الدنيا . . وقالوا انتهت الآفات من الزرع . . وسيصبح الانتاج أكثر . . ثم ماذا حدث ؟ . . أصابت هذه المبيدات البشرية كلها بضرر بليغ . . حتى أن الذين اكتشفوها . . هم الذين يحرمون استخدامها الآن تحريماً قاطعاً ، لأنها حملت السموم الى النبات والانسان والحيوان . . وكان ضررها أكثر من نفعها . .

أهذا عمل حسن ؟ أم عمل قبيح ؟





الذين قطعوا الغابات والأشجار ليبنوا المدن والمصانع باسم المدنية والتقدم . . ثم ماذا حدث ؟ . امتلأ الجو بالتلوث . . فأصيب الناس بأمراض خطيرة . وحدث ثقب فى طبقة الأوزون التى تمنع الأشعة الضارة للشمس من المرور الى الأرض . . والتى ستؤدى الى ارتفاع كبير فى درجة الحرارة على الأرض والله يعلم وحده ماذا سيحدث بعد ذلك . حتى أن العالم كله يصرخ الآن من التلوث . . ويعمل بجنون على إعادة زرع مساحات خضراء . . بدل تلك التى أزالوها باسم المدنية والحضارة والتقدم .

هل هؤلاء الذين فعلوا ذلك . . فأصابوا ملايين من البشر بالأمراض من التلوث . . هل هؤلاء فعلوا خيرا ؟ أو شيئاً حسناً ؟ . . أم فعلوا شيئا قبيحاً. وضاراً وكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً !!

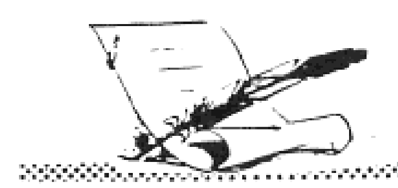
إن الناس كلها . قد بدأت تهرب من المدن . . التى صنعها أصحاب الحضارات . . الى الريف والأماكن النائية فى الصحراء . . بحثاً عن الجو النقى . . والهواء غير الملوث . . لجأوا الى الأماكن التى لازالت تعيش على الفطرة . ليحتموا بها من التلوث الذى يملأ أماكن الحضارات والمدنية .

هؤلاء الذين نشروا السرقة والارهاب والقتل فى مجتمعات أصبحت لا تعرف الرحمة . . كل هذا تم باسم المدنية . . وتم بادعاء أن العقوبات التى فرضها منهج الله فيها قسوة . . هؤلاء لم يعرفوا الحكمة ، وهى أن العقوبة تفرض لمنع الجريمة . . وكلما كانت العقوبة رادعة . كانت مانعا أقوى لحدوث الجريمة .

ولعلنا إذا نظرنا الى مجتمعات الغرب . . وما فيها من حوادث ورعب . . ونظرنا الى المجتمعات التى تطبق الشريعة الاسلامية . . وما فيها من أمن وأمان . . لعرفنا الفرق بين علم الله وعلم البشر . . بين منهج الله ومنهج البشر .

إن البشر يشربون الآن الماء الملوث . . وقد أنزله الله سبحانه وتعالى من السماء طاهرا مطهرا . . ويأكلون الآن الطعام الملوث . . وقد خلقه الله طازجا مليئا بالخيرات . . كل هذا يحدث . وقد حسبه الانسان حسنا . . لأنه جعل نفسه الحكم على شيء لم يملك فيه علما كافيا للحكم .

وكلما تقدم بنا الزمن . . نكتشف أشياء هلل لها الناس لكن لا تلبث أن يظهر أثرها الضار الذى يفسد الدنيا ويضر بالبيئة وكل ما عليها حتى أن الأدوية الكيماوية تصيب الانسان بأضرار وأصبح الأطباء يبحثون الآن عن أدوية من الأعشاب الطبيعية ليمنعوا الضرر عنا .

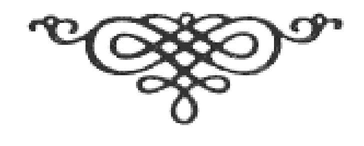


من يقصد الدنيا

هذا هو الكهف السادس . يعلمنا الله سبحانه وتعالى فيه أنه هو الحكم .. وأن كل من يقصد الدنيا بأى عمل .. ولو كان هذا العمل من الطاعات . ليس له ثواب عند الله فى الآخرة .

وهكذا بينا عددا من الكهوف المعنوية .. التى ضمنها الله سبحانه وتعالى فى سورة الكهف .. ليلفتنا الى أشياء كثيرة .. منها ألا نحكم بالظاهر على الباطن .. ومنها أن من يهرب بدينه من مجتمع الكفر والطغيان يتولاه الله برحمته .. وييسر له أمره . ومنها وظيفة ذلك الحاكم الممكّن فى الأرض .. والمنهج الذى يجب أن يسير عليه . ومنها أن كل عمل لا يقصد به وجه الله . ليس له جزاء عند الله .

والله يهدينا سواء السبيل ويوفقنا لما فيه الخير .



الفهرست

الفصل الخامس

الفصل السادس